
محمد عمر توفيق
أيام في المستشفى

محمد عمر توفيق

أيام في المستشفى

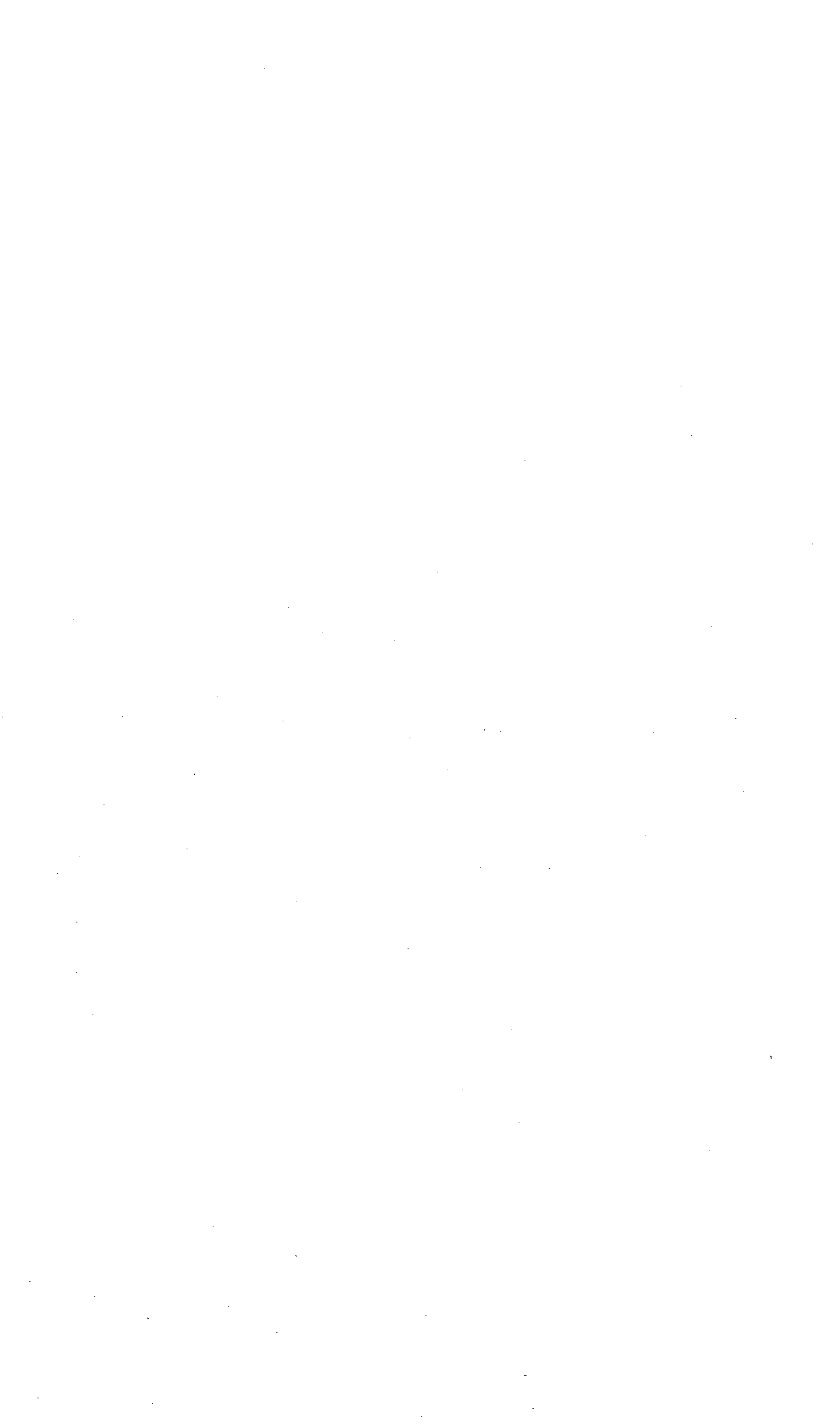
الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ ـــ ١٩٨٩ م
جـدة ـــ المملكة العربية السعودية



بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة لابد منها



حوالي منتصف عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) ظهر كتاب أو ــ على الأصح ــ هو كتيب صغير بعنوان (٤٦ يوماً في المستشفى) رويت فيه خواطري وانفعالاتي بعد حادث ألمَّ بي في نهاية عام ١٣٧٢ هـ ، وأمضيت لعلاجه ستة وأربعين يوماً بمستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت .

ولقد نفدت الكمية المطبوعة منه في هذه الأثناء ، وأحسبها كانت قليلة ، والمدة طويلة منذ صدوره إلى اليوم ، ولقد نسيت كل شيء عنه حتى فتحت يوماً ما وقبل بضعة أشهر أحد أدراج مكتبي ، فصادفني أو صادفته ، وأخذت أستعرضه وأقلب صفحاته وأتوقف عند بعضها ، وأستعيد انفعالاتي كما لو كانت بالأمس ، فتبينت أن ما رويته لم يكن وافيا حق الوفاء ، وأنني قد ارتجلت ما صادفني من خواطري حينذاك مذ كنت حريصاً ــ كما يبدو ــ على إثبات وجود قدرتي على الكتابة يومها بعد أن مَنَّ الله بالشفاء الممكن على ذراعي الأيمن أو اليمين ، فلم أذكر كل ما حدث في بداية الأمر ، ولا ما حدث في النهاية بعد مبارحة المستشفى ، ولا بعض التفاصيل واللمسات بين البداية والنهاية .. إلى آخر ما شَدَّني للتفكير في تدارك ما ذكرت ، واستيفاء ما أمكن ، وجهد المستطاع ، من ذكريات حادث ما يزال في يمناي وعلى ظاهرها وباطنها تاريخاً أو واقعاً ملموساً إلى أن يأذن الله .

ثم أَلَمَّتْ بي قبل أكثر من عامين قصةٌ لوت عناني من (سنغافورا) إلى (المستشفى التخصصي) في الرياض ، حتى مَنَّ الله كعادته بالخير

والشفاء بعد أن ظللت أياماً بين مختلف الفحوصات والعمليات .. وتحدثت عما كان في أكثر من مقال في مجلة (إقرأ).. ثم تحدثت في مقالين آخرين عن محاولات شتى للعلاج بين القارات .

ثم ألم بي بعد ذلك ، ومنذ نحو عام ، حادث آخر شدّنى من (سويسرا) إلى (المستشفى التخصصي) في الرياض للمرة الثانية والأخيرة إن شاء الله .. وكانت فحوصات وعملية أخرى .

ومنَّ الله بالشفاء بعد لطفه الخفي فيما كان .

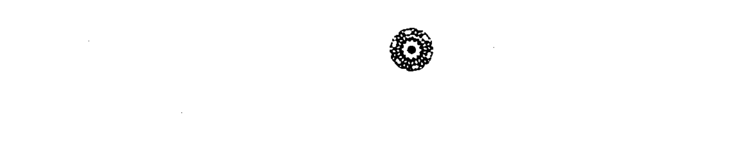
وتحدثت عن ذلك في مقالين في صحيفة (عكاظ) .

وَبدَى الرباط وثيقاً بينْ هذه المقالات وما سبق في (الكتيب) الصغير عما حدث في عام ١٣٧٣هـ .

وهكذا جَمَعْتُ شَمْلَ ما سَبَق وَلَحِقَ في هذه الصفحات تحت عنوان رئيسي هو (أيام في المستشفى) وبتفاصيل عناوينها كما كانت من قبل .

إنها صفحات ليست من الأهمية بدرجة الحفاوة أو الاحتفاء ، ولكنها شيء حلوْ مُرٌّ من الذكريات .. لنفسي ، ولهواة مثل هذا اللون إن كانوا .

وأسأل الله أن يكفينى وإياهم شر مالا يطاق ، وأن يجعلنا من أهل الصبر الجميل على ما يطاق ومالا يطاق وفي كل حال .



الصحة تاج على رؤوس الأصحاء

لا يراه إلا المرضى ..



الماضى الحيّ

دخلت مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت ، وأمضيت فيه ستة وأربعين يوماً .. لكل يوم منها تاريخ طويل عريض أذكره الآن ، فأستغرب وأدهش لأنه قد مضى ، ولم يعد واقعاً كنت أحيا وأعيش فيه .

وما تمنيت قط أن أمسك القلم وأن أكتب ، كما تمنيت ذلك وأنا في المستشفى .. كنت أشعر بأن رأسى مملوء بالكلام ، أو بما يشبه الهذيان .

كانت أعصابي تغلي .. كنت أعيش في ماضى الحادث .. وفي حاضره ، وفي مستقبله .

ولكن يمينى كانت ـــ مع الأسف ـــ مُسَجَّاةٌ أمامى ، فكيف أكتب ؟

وتصورت أنني قد أصبح عاجزاً عن الكتابة بقلمي ـــ لا سمح الله ـــ وتصورت المعرى والرافعي وطه حسين ، ومن إليهم ممن أَمْلَوْا وَيُمْلُونَ أفكارهم إملاءً .. ولكننى لم أجد في ذلك أى عزاء .

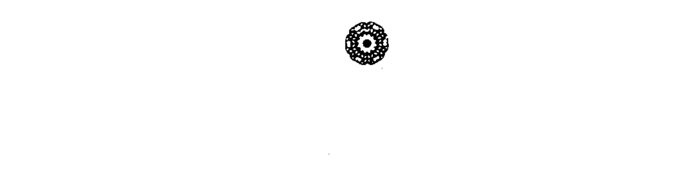
لقد كانوا عباقرة ، أو على نسب متفاوتة من العبقرية ، أو غير عباقرة ، فالتاريخ قد يذكرهم على أى حال ، ولكن هل تُجْدِيهِمْ ذكراه أو تجدي غيرهم بعد أن ذهبوا .. كما تُجْدِي رحمةُ الله ؟ ثم أنا لا أحب أن أكون عبقرياً بالإملاء .

إنني أكره الإملاء مِنّى أو عليَّ في كل زمان ومكان ، لأننى أكره بواعث الإملاء ، وهي ـــ غالباً ـــ الشعور بالعجز وضعف الحيلة .

ومع هذا .. ومع أن أكثر من في المستشفي لا يجيدون من العربية إلا ما أجيده أنا من التركية مثلاً ـــ فقد حاولت أن أُمِلْيَ الممرضة عندما كانت تغلي أفكاري ، ولكنني وجدت أنه يتحتم عليَّ أن أعلِّمها الخط العربي أولاً ، ثم قواعد الإملاء والنحو ، ليكون في إمكانها أن تكتب إذا أمليت .

وهكذا طويت أفكارى وأنا في المستشفى .

ثم .. ثم .. ـــ أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ـــ خرجت من المستشفى .. وما حاولت أن أنسى الماضى ، كما حاولت أن أنساه بعد أن خرجت من المستشفى .. غير أن هذا الماضي الحي في أعصابي فضلت أن يحيا على الورق ليموت في أعصابي .



قصـــة الحــادث

ولكن من أين أبدأ ؟

تذكرت الحادث .. وكيف وقع ؟ وكيف كانت خواطرى قبل الحادث كأنما هي تتوقع كارثة ما ؟ وهل .. ولماذا .. ؟ إلى آخر الأسئلة التي قد تجيب عليها كلمة واحدة هي (القضاء والقدر) باختصار .

لقد أخذت مقعدى إلى جوار أخى الذي كان يقود سيارته بنا ، وكـانت من نـوع (فلكس واجن) وقـد اشتراها قبـل الحـادث بليـالٍ ، وقال له قائل من أهلها إن هذا النوع لا يتعرض لخطر الانقلاب في (الملفات) مهما كان السائق مسرعاً لأسباب فنية يتميز بها تصميم السيارة .

قلت وهو يذكر لى ذلك : أدخل (الملف) بهدوء وليس مسرعاً ولا تصدق ما قيل لك .. وكنا أنا وهو وأكبر أولادى ، ولم يتخط العاشرة حينذاك ، ورفيق لنا ــ كنا جميعاً في ملابس الإحرام للحج ، متجهين إلى عرفات بعد عصر اليوم الثامن من ذى الحجة ١٣٧٣ من طريق (شارع المنصور) وكان ينطوي قبيل منتصفه على منعطف أو (ملف) حاد خطير ، وكأنما أراد السائق أخى أن يريني مصداق ما قيل له عن السيارة ضد ما قلته له أنا ، فأقبل عليه مسرعاً ، وكنت لسوء الحظ أضع يمينى على حافة الباب ، فلو لم تكن كذلك لما أصابني ما أصابني بعد انقلاب السيارة على جنبها الأيمن ، حيث ظلت يمناى تحتها إلى أن توقفت السيارات ومن ضمنها سيارة رئيس المرور بالمصادفة .. وتجمع الناس ورفعوا السيارة عن

يمينى التي كانت الدماء تنزف منها بغزارة وقد بدت ممزقة كأنما هي قد (هَبَّرَهَا) ساطور ، وكل ما عداها من أطراف جسمي سليم كالآخرين الذين كانوا معي ، أو كثلاجة الماء التي كانت عند قدمي ، ثم لم يمسها أى سوء .

كان الْقَدَرُ كامنا في وضع ذراعي على حافة الباب لا أكثر ولا أقل .. وأخذني رئيس المرور[1] إلى جواره مسرعاً بي إلى المستشفى ، والألم يشدني إلى الصراخ .

وهكذا وقع الحادث .. وانكسرت يميني .. وكانت الساعة قبل أو حوالي منتصف الليل عندما فتحت عينيَّ بعد العملية التي أجريت وأنا في غيبوبة (البنج) ، لأجدها في قالب متين من الجبس يشملها من أعلى الذراع إلى رؤوس الأصابع .

كان هذا ليلة اليوم التاسع من شهر ذي الحجة ١٣٧٣هـ وفي مستشفى الزاهر بمكة المكرمة .

ثم دارت عجلة اليوم الأول والثاني ، وظهر بعد تصوير ذراعي بالأشعة أن اليد لا تزال مكسورة .. وقد لاحظت وأنا أتأمل محتويات المستشفى أن من بينها إنساناً مصاباً بالكسور في أكثر من طرف من أطرافه ، وهو يبدو كالشبح بين الضمائد واللفافات وعدد من أصدقائه يساعدونه على المشى بين مرافق المستشفى .. واتضح بعد السؤال أنه أصيب في حادث سقوط من على حماره الذي كان يركبه إلى عرفات أيضاً .. وهكذا تستوي في عالم القدر حوادث السيارة والحمار .. وسواها كما لا أحتاج أن أقول .

---

(١) كان رئيس المرور يومها هو الأخ حامد أبو نواس .. ولا أدري أين هو الآن ؟ يرحمه ويرحمنا الله على أى حال .

وأسرعت فخرجت من المستشفى بعد أن علمت ـــ حينذاك ـــ أن المريض قد يكره الإقامة في المستشفى إذا كان مفروضاً عليه فيه أن يقوم هو بشؤون نفسه . وفي مقدمتها إبادة الذباب والحشرات[1] .. أما المستشفى فحسب المريض منه أنه ساكن فيه !!



(١) كان هذا في عام ١٣٧٣هـ كما هو واضح من السياق ، وَيَتَلوَّن الكمال والنقص على مر الأيام ، والكمال لله في كل حال !

من جدة إلى بيروت

ثم .. وبمساعدة الشيخ إبراهيم السليمان[1] سافرت في الطائرة التي أظن أنها أول طائرة أقلعت ليلاً من جدة إلى بيروت بعد مساء اليوم الثاني عشر من ذي الحجة ١٣٧٣هـ ولهذا كانت الليلة قمراء ، وبدأ القمر من نوافذ الطائرة وكأنه طائرة أخرى أو (طبق طائر) في اتجاه مضاد .. ولهذا ــ أو لما كنت فيه ــ لم يسعنى أن أنظر إلى القمر بعيون الشعراء .

وكان معي في الطائرة بعض أهلي وعيالي .. وعندما كانت تضطرب بنا فوق سطح البحر ــ كنت أتمنى أن لو كان معي كلُ أهلى في الطائرة .

كنت أتخيل الموت ، وأفزع بأعصابي .. ولكنني بإحساس المريض (القرفان) ــ كنت أقول : ما أحلاها موتة لو سقطت بنا الطائرة في هذا البحر أنا وكل من أحب !

قلت للمضيف بعد أن ارتفعت بنا الطائرة ، وارتفعت درجة حرارتى معها ــ من فضلك .. غطاء .. بطانية .. جاكتة .. أى شيء .

كانت فرائصى ترتعد بَرْداً وأسناني أيضاً لما كنت أعانيه بين هبوط الحرارة وارتفاعها ، بينما الجو الذي غادرته في مكة وجدة كان شديد الحرارة يومذاك ، ومط المضيف شفتيه أو كتفيه متأسفاً .. فتذكرت صديقاً كانت الطائرة قد تأخرت حركتها بسببه من مطار جدة نحو عشرين دقيقة .. ورجوت المضيف أن يذهب إليه ، فقد يجد لديه أى اسعاف ،

---

(١) رئيس ديوان نائب جلالة الملك حينذاك ، وكنت موظفا فيه يرحمه ويرحمنا الله .

وجاءني بالفعل من عنده بجاكتة دفنت فيها رأسي وكتفي .. ثم أحسست الدفء إجمالاً في جو الطائرة .. إلى حد أن احداهن وقفت وتأوهت من شدة الحر ، وقالت : (شُوبْ ... شوها الشوب ؟) قلت في نفسي : معذورة .. لأنها سورية .. لا تطيق الانتظار الطويل في الجو الحار !!

وبدأت أنام .. أو أدفن رأسي في صدري فقط .. حتى فتحت عيني على مائدة من السندوتش والفاكهة وُضِعَتْ في حجري ، فقلت : بالتأكيد إن الطيران السعودى يتقدم .. وليته يتقدم إلى أن يكون عندنا أسطول جوى كبير[1] ..؟ ثم نمت مرة أخرى حتى صحوت قبيل الفجر .

وأخذت أودع القمر بعد أن أخذ يستعيد مركزه الْعَالِي في السماء ، ونحن في طريقنا إلى الأرض .. وكنت أحمل يمناي الكسيرة على يسراي وأنا أهبط من سلم الطائرة بالوقار أو بالوضع المناسب .. وكان خلفي من كانوا معي من الأهل والعيال .. بعضهم يحمل بعضاً ، وبعضهم يحمل الذي كان معنا من متاع السفر والجوازات .. وبعضهم كان ما يزال نائماً أو نائماً يقظان .

وتذكرت الاجراءات ومتاعبها بين الجوازات .. والجمرك .. ودوري في هذه الأثناء بين القادمين مثلي .. وشعرت بعجزي وضعف حيلتي وأنا أنظر إلى يدي اليمنى في كفنها أو تابوتها الأبيض .

ومشيت في المطار .. وتبينت شبح إنسان كنت أعرفه ولا أدري كيف تخيلت بسذاجة : أنه ربما جاء لاستقبالي .. ثم قلت : إن لم يكن كذلك فلا بد أنه يذكرني كل الذكرى .. وإن لم يكن كذلك ــ أيضاً ــ فيكفي أنه (إنسان) وأننى (إنسان) لا ينقصه أي إيضاح لحاجته إلى المساعدة على ما هو فيه .

---

(١) كانت هذه الأمنية في عام ١٣٧٣هـ وأحسبها قد تحققت في هذه الأثناء والحمد لله .

وكدت أفتح الشنطة ، وأمد إليه كتاباً كنت ـــ بالإضافة إلى كل ما ذكر ـــ أحمله إليه من كبير في بلادي .. ولكنني توقفت عندما مد يده ليصافحنى ، ثم انصرف بعد تحية ميتة لفظها من شفتيه .. وعلى وجهه ما يشبه (القرف) أو هو الشك في أننى أحمل يداً مكسورة باليد الأخرى .. وخلفى من خلفى .. قادمين من طائرة في غسق الفجر .

وتذكرت الله في ضميرى بألم ووجدان ، فكانت رحمته أسبق إليَّ من ذكراه عندما سمعت صوتاً يدعوني باسمى من إحدى الشرفات في مطار بيروت .. كان فيها صديقان أبرقت لهما في الشام ليستقبلانى في مطار بيروت .. وكان أحدهما يلوح بيديه أو بذراعيه .

وَسَبَّحْتُ وَكَبَّرْتُ في قلبي وأعماقي لرب رحيم .

أحضـــان لبنـــان

كانت بيروت نائمة أو لعلها قد بدأت تنام كعادتها إذا أدبر الليل وطلع الفجر .. واستيقظت الطبيعة حواليها وفي جبالها . وقد دبت حركة الصباح بفتور كفتور الشمس وهي تغمر بأشعتها بقايا الليل ، ووجوه من كانت تحملهم أقدامهم في ذلك الوقت المبكر .. إما إلى البيت .. أو إلى الكفاح !

وتذكرت وأنا أطل على البحر في ساحة (الزيتونة) كيف كانت لبنان ملء قلبي وهواي .. وأنا اليوم ألتمس فيها جبر الخاطر أو (الشطر المكسور) ؟.

وأحسست بمتاعب السفر ، والمرض ، تنهال فجأة علي .. وعندما صحوت بعد الظهر من نومة طويلة تبينت أن حالتي ليست طبيعية .. ووقفت أمام المرآة ، فكدت أنكر نفسي .. كان وجهي قد بدأ يتنفخ كبعض أطرافي أيضاً .. وأخذت أخمن الأسباب .. وقلت في نفسي ولمن حولي وهم يتأملوني ربما كان ذلك نتيجة التعب أو الانتقال السريع من جو بلدي إلى جو بيروت ، أو نتيجة (الحامض) وألوان الحامض التي تقدم مع الأكل في لبنان .. كل شيء تصورته إلا الحقيقة ، وهي أن هذه الحالة الطارئة على جلدي كانت أعراض أو بداية تسمم !

وأخذت أتأمل البحر .. والسيارات التي كانت تطير في طريقها المتعرج على شاطىء البحر .. كان قلبي يخفق وكنت أتذكر الحادث

وأتصوره كلما انحرفت سيارة إلى اليمين أو إلى الشمال ، وارتفع صرير كفراتها على الأسفلت بين (الملفات) .

ورفعت رأسى إلى جبال لبنان .

لو لم تكن على يدي هذه الجبيرة أو الكفن الأبيض لربما كنت الآن هائماً في أي جبل من جبال لبنان .. وسرت في أعصابي نشوة لذيذة وأنا أحلم وأتصور المستقبل قريباً ، وأن أيامي في المستشفى لن تزيد عن عشرة أيام على الأكثر .. وأهيم بعدها كما أحب في أحضان لبنان .

وباحلام كهذه نقلتنى السيارة من الفندق إلى مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت .



الدنيا الجديدة

أذكر الآن أنني تطلعت إلى باب المستشفى ، وأنا أستدبره إلى الداخل ــ بلهفة عميقة تخالطها حسرة على الدنيا التى تركتها خارج المستشفى .

لقد أحسست ــ وأنا أجتاز الباب .. وصالون المستشفى .. وأتأمل وجوه الناس ــ أننى انتقلت إلى عالم آخر أُشمُّ فيه رائحة المرض شائعة كالهواء والضوء .

وتلفت إلى باب المستشفى .. وقلت في نفسي : ما أسعد الخارجين منه .. ليتنى بينهم .. وأخذت أتصور اليوم الذى سأخرج فيه من المستشفى قريباً .. وانتعشت أفكاري لهذا التصور وأنا ما أزال في الصالون ، في انتظار أن تتم الاجراءات المتعلقة بدخول المريض الجديد ، والتحاقه بهذا العالم الذي يعيش في المستشفى .. أو وراء شيء كالستار الحديدي فيما تخيلت حينذاك .. وتخيلت أن الوجود في هذا العالم يؤكد وجود حالة ثالثة لا يصدق عليها الموت ولا الحياة ، ويظل الإنسان مندمجاً فيها حتى يخرج من الباب ، محمولاً على الأعناق .. أو على قدميه .. أو بين بين !

وأفقت من تأملاتى على صوت شاب قَدَّم إلي دفتراً وقلما وقال : وقِّع هنا ، ثم استدرك قائلا : هل تكتب ؟ وغلى الدم في عروقي لسؤاله .. كأنما ظاهرى لا ينطق بأنني أكتب .. ولو اسمى على الأقل ؟ ولكننى نظرت إلى يمينى المكسورة وقلت في نفسي : مع الرجل حق .. أنا الآن فعلاً لا أكتب .. أنا الآن نصف أمي .. وأخذت القلم باليسرى لأكتب اسمى .

وكانت محاولة شاقة ، ذكرتني بالجهد العنيف الذي يبذله الإنسان وهو يتعلم الكتابة .. لا سيما إذا تقدمت به السن .

ثم نقلني (الأسانسير) إلى الدور الثاني في المستشفى .

وأخذت أتأمل الدنيا الجديدة ، فكانت خواطرى ترجع حزينةً إلي .. إن كل شيء في هذه الدنيا الجديدة موضوعه المرض ، فعلى الأسرة مرضى .. وفي الأسانسير مرضى .. وفي الممرات مرضى .. حتى هذه الوجوه الجميلة التي يجلس بعضها خلف مكتب طويل مستدير ، ويطوف بعضها هنا وهناك بخطوات سريعة رشيقة كالموسيقى ترتاح لها الأعصاب وتهش لها الخواطر — إنما كانت للمرضى ولمعالجة شئون المرضى .. وجاءني وجه من هذه الوجوه .

كان شعرها أسود يتناثر على وجهها أحيانا ، فتعيده إلى كتفيها .. وكانت ملامحها باسمة .. وعيناها أجمل ما فيها .. وعندما أخذتني فى (الأسانسير) مرة أخرى إلى الدور الأول — خطر في بالى كل شيء إلا أنها طبيبة ، فقد كانت صورة الطبيب أو الطبيبة فيما تخيلته حينذاك جامدة الملامح ، ولم تكن هي كذلك فيما لاح لي منها .. وسخرت من نفسي ومن متابعة أفكار كهذه موضوعها الملامح أو الاستلطاف ، وأنا رجل موضوعه المرض والتماس الخلاص من بلواه .!

ثم أعادتني إلى (الأسانسير) بعد أن التقطت الأشعة صوراً ليميني ، ومنه إلى الدور الثاني .. وإلى غرفة كان فيها على شمالي مريض آخر .

كانت الغرفة من الدرجة الثانية .. وكنت أرتب مجلسي على السرير عندما دخلت الغرفة عربة الطعام تدفعها فتاة في السابعة عشر ، أو حواليها.. وقدمت للزميل وجبة العشاء .. وإليَّ أيضاً .. ولكنني اعتذرت بأنني لا أشتهي الطعام .

وأرسلت بصري خارج الغرفة .. كانت هناك جلبة في الممر ، وكان هناك شاب لا يكاد يتجاوز العشرين ، يتوكأ على عكازين تحت إبطيه فيما يبدو أنه تمرينات رياضية يساعده عليها آخرون .

وقدمتْ في هذه الأثناء إلى غرفتنا سيدة سورية .. وفي نظراتها وكلماتها معنى التماس الرحمة والمواساة ، وأخذت تروى لنا قصة عزيز من أهلها كان يغتسل في البحر ، فدقت عنقه صخرة تعطلت بسببها حركة الحياة في جسده فيما عدا النبض والدماغ .. كانت تروى قصتها من القلب إلى القلب ، ومن الإحساس المصاب إلى الإحساس المصاب .

وكنت أفكر في هذه الدنيا الجديدة التي اقتحمتها فجأة ، وهي دنيا المرض والألم والمستشفى عندما جاء الدكتور جـ. دي جان ، وقدم نفسه إليَّ وهو يجلس على طرف السرير الذي كنت أتمدد عليه ، وقال بعد التحية والمواساة : إن الوقت ضاق اليوم ، وإن الكشف على يمينى سيكون غداً .. وكنت أنظر برعب إلى الطبيب الذي سيتصرف في يدي تصرف الجزار .. كانت الملامح التي تنبعث من عينيه وقوامه الفارع تتفق مع طبيعة المهنة التي يمارسها .. ملامح واعرة أحسست أن العواطف قد هبطت فيها إلى الصفر .. ولكنني برغم ذلك أحسست في نفسي ما يشبه الارتياح للطبيب في شخصه بل ولأنه هو جزارى بالذات .

كان فمه يبتسم .. ونظراته أيضاً .. وكانت لهجته رقيقة .. وعدا ذلك كان كل شيء في ملامحه وكلماته يبعث على الثقة والإيمان .. فوثقت أنا أيضاً منه ومن نفسي .. بعكس ما كان ليلة العملية الأولى في مستشفى الزاهر بمكة المكرمة !

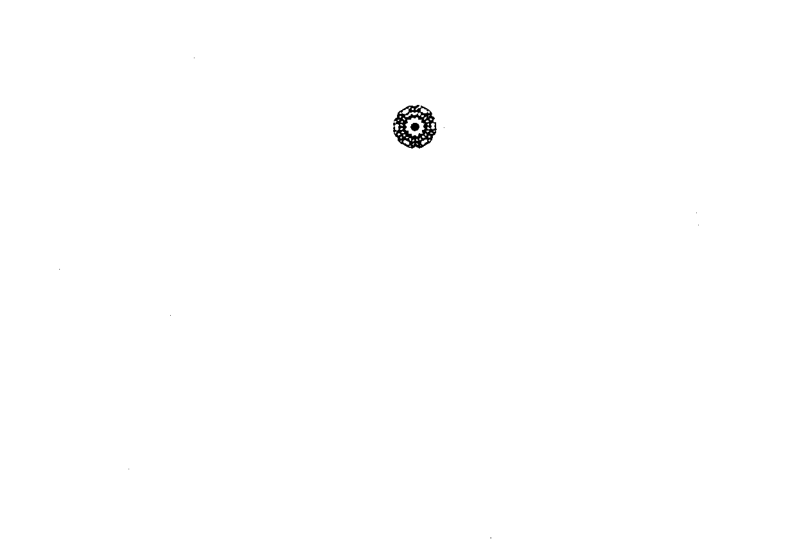
ثم أدرت وجهى إلى النافذة .

كانت تطل على إحدى ردهات المستشفى .. وكان بعدها في الناحية المقابلة بيت لا تكاد تهدأ الحركة فيه .. خاصة من الجنس اللطيف .. وكان

الممرض يأخذ حرارتى حينذاك ، فسألته : ما هذا ؟ أهو معهد للموسيقى أو الرقص أو .. أو ماذا ؟ فضحك وقال : لا .. هذا جناح من المستشفى معد لسكنى بعض الممرضات والعاملات في المستشفى .. وهذا وقت تبادل نوبات العمل في المستشفي أثناء الليل والنهار ..و ..

ورفعت رأسي إلى الأفق البعيد .

كانت الشمس التي شهدتُ مشرقها صباح يومي الأول في بيروت ، قد انحدرتْ إلى مغربها ، لتستيقظ بيروت وتنام الطبيعة .. والمستشفى .



دعـــاء المضطـــر

قلت : يارب .. بعد نصف الليل .. قلتها من كل قلبي وجوارحي .. ومن يدي الكسيرة .. بعد أن أعياني النوم .

ولقد حدثني الزميل العراقي في هذه الأثناء عن قصته وقصة آلامه التي ابتدأت من نحو عشرين سنة ــ في (البروستات) والمعدة ، ومالا أذكره الآن ، وعما قاساه إلى هذه الليلة بعد آخر عملية أجريت له في هذا المستشفى .

وحدثت الزميل عن قصتى الأخيرة وحدها ، وكانت في نظري كافية لمواساته على قاعدة (من رأى مصيبة سواه هانت مصيبته عليه) .. ثم أخذنا نتطارح النوم كما لو كنا نتطارح الشعر .

كنت أسعل فيتأوه جوابا على سعالي .. ثم يَئِنُّ فأجيبه بِنَفَسٍ طويل عميق !

وعندما كان يسكت ويخيل إلى أنه أغفى ــ كنت أضغط الجرس ، فتضاء لمبة حمراء على باب الغرفة إلى أن تجيء الممرضة ، وأطلبها مروحة لتبريد الغرفة ، لأن الجو كان صيفاً في بيروت .. ويتكلم العراقي في هذه الأثناء ، ويطلب فنجان قهوة .. ثم يحدثنى عن النوم والأرق الذي حرمه النوم في المستشفى .. وهكذا مضى الشطر الأول من الليلة الأولى .

وخيل إليَّ أنني استغرقت في النوم عندما صحوت وتنبهت أعصابي كلها .. كانت ذراعي تأكلني تحت الجبس .. وكلمة (تأكلني) لا تكفى ، فقد كنت أتمنى أن أمزق الجبس ، ثم أنهش ذراعي بأسناني .

وبدأت أسمع شخير العراقي .. فأخذت أحك أعلى الكتف وما تناله أصابعي تحت الجبس .. واشتد ذلك عليَّ ، حتى تمنيت أن يستمر الأرق ، ولكن بدون إزعاج كهذا تحت الجبس .. وفشلت محاولاتي ، فضغطت الجرس ، وضغطته مرة أخرى ، حتى جاء الممرض المناوب ، فشكوت له حالي ، ومد يده إلى كتفي ليمارس الحك والتدليك ، ثم مط شفتيه وقال : سأخبر الطبيب أو أستدعيه إذا اقتضى الأمر .. وغاب عني قليلاً ، ثم عاد وفي يده كوب من عصير الليمون المثلج وقال : اشرب هذا فقد يساعدك على النوم .. وشربت الكوب ، ونظرت إلى السماء .. وقلت : يارب .. يا من يجيب المضطر إذا دعاه .

قلتها من كل قلبي وجوارحي وأعماقي .. ومن يدي الكسيرة .. في الهزيع الأخير من الليل .. ثم .. ثم لا أدري كيف نمت ولم أستيقظ إلا بعد الفجر !



اليـــوم الأول

وجاءت عربة الإفطار تدفعها فتاة في جو إشراق الشمس الهادىء الجميل .. وقدمت فطور الزميل ثم أوشكت أن تقدم فطوري .

كنت جائعاً .. ولكنني تذكرت أنه لا بد من يد أخرى تلقمني الطعام ، فاعتذرت .. وسألتها أن تملأ لي كوباً من الشاي بالحليب ، فقد كان في إمكاني أن أتناوله باليسرى .

وأخذت بالتدريج أشعر بحاجتى إلى ممرضة خاصة تعالج شئوني وحدى .. فقلت ذلك لأهل المستشفى .. وجاءتني الطبيبة التي أخذتني بالأمس للكشف على يمينى بالأشعة ، وأخذتني مرة أخرى إلى غرفة في الدور الأول ظننت أنها غرفة العمليات .. ثم ظهر أنها معدة لتنظيف الجراحات ولمثل عملية قص الجبس عن يمناى ، ومع ذلك فقد قارنتها بغرفة العمليات في جهات أخرى وأسفت كثيراً بعد المقارنة !

وأخذ الوجه الجميل يتحول إلى وجه طبيبة صارمة الملامح ، فكانت لا تحفل بشعرها الأسود إذا تهدل على وجهها ، وهي تمسك المقص وتعالج به الجبس .. وجاء طبيب .. وآخر ، وأخذوا يعالجونه متضافرين ، حتى لاح القطن بعد جهد جهيد تحت الجبس .. ثم لم يسعنى غير أن أدير وجهى إلى الشمال ، فقد انبعثت من وراء القطن رائحة جيفة في يمناى !

وقال لي أحد الأطباء وهو يصعد بي إلى غرفتي في الدور الثاني : الحمد لله ، وبلعت ريقي بصعوبة وأنا أتخيل تطور (الجيفة) لو فات الوقت

المناسب .. ثم أضاف الطبيب مشجعاً لي على بلواى : إنها بسيطة سنعالج الجراح أولاً حتى يتسنى فيما بعد تجبير الكسور .. وابتلعت ريقى مرة أخرى بصعوبة عندما قال إنها ستربط بسلك تحت الجلد .

وسألني : هل أنت حجازي ؟ قلت : نعم .. قال : وأنا أيضاً من الحجاز .. من بيت كبير سماه لي في مكة .. وأحسست مزيداً من الطمأنينة عطفا على ما سبق بعد استقبال الطبيب الأول في الليلة الأولى .

ثم بدأت عمليات علاج الجراحات .. وبدأت أعقب طلب الممرضة الخاصة بإلحاح .. إلى أن غربت الشمس .

وأشرقت طلعتها على باب الغرفة ، ثم نظرت في حيرة إليَّ وإلى العراقي .. وقالت : أنت محمد ؟ قلت : نعم .. وأخذت الكرسى عند آخر سريري وجلست .

كانت تلبس نظارة .. وكان وجهها ضاحكاً .. وخيل إليَّ أنه يضحك مني .. تصورت أنها ترثي لي على الأقل .. والرثاء إنما يكون للضعف ــ أى ضعف كان ــ والرجل دائماً يجب أن يكون القوى .. في نظر المرأة على الأخص !

ولاحظت بالتدريج أنني أعيش مع هذه الممرضة في جو انفعالات لم تكن هي الهدف أو موضوع العلاقة بها ، فأنا لم ألتمسها لحسابي الخاص إلا باعتبارها إنسانا يمكن أن ينزل منى منزلة ذراعي اليمين في معالجة شئوني كحركتى على السرير .. وإلى الحمام ، وتناول وجبات الغذاء ، ونظافة بعض أطرافي ، إلى آخر ما يتطلبه وضعى بعد ما كان من عجز يمناى ، فهل يمكن أن يكون هذا الإنسان هو هذه الممرضة الصغيرة الحسناء ...؟

وكانت زيارات بعض الأصدقاء لم تنقطع عنى في هذه الأثناء ومن بعد ظهر يومي الأول في المستشفى .. كنت أشعر بأن قلوبهم معى ،

وأسعدني ذلك بل وأثلج صدري ، وملأ نفسي يقينا وإيمانا بالجميل والخلق الفاضل .

حتى الرجل الذى كان من أمره ما كان في المطار أسدلت زيارته ستاراً في نفسي على ما كان ، وكنت قد أخذت ألتمس له العذر عندما أخذ هو يلتمسه لنفسه بلسانه وكأنه لا يعى ما يقول .. لقد ظن عندما رآني في المطار أنني قادم للفسحة ، وأن حالة ذراعي مجرد مبرر لطلب الفسحة ..! ثم .. إنه كان في المطار ليودع كبيراً سافر من بيروت قبل الفجر ، وعندما سمع أن طائرة سعودية ستصل حينئذ من جدة فضل انتظارها ، لا ليستقبل أحداً بالذات .. وكنت قد رأيته في المطار يجرى لاستقبال من تفضل علي بالجاكتة في الطيارة !

قلت في نفسي : إن الغرور هو عذر المغرور على أى حال !
ولكن لماذا جاء يزورني ؟

وتذكرت الكتاب الذي كدت أقدمه إليه في المطار ــ ويبدو أنه قد سمع عنه ــ عندما سألنى عما إذا كنت محتاجاً لأى شيء فقلت : شكراً ، ثم لم أره إلا بعد عمر طويل !

وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة من مساء اليوم الأول في المستشفى عندما قلت بعد محادثة طويلة للزميل العراقي : أرجو أن تكون (مبسوطاً) فرفع عينه إلي .. وبدا عليه أنه يستزيدني ايضاح الكلمة التي قلتها ، وعلى وجهه انفعال يغالبه ، فقد كان للكلمة ــ كما بدى ــ مفهوم مزعج غيرّ معنى السرور الذي كنت أعنيه .

قلت : آسف .. إننى أقصد أن تكون سعيداً الليلة ، وأن ننام معا نوم العافية .. ثم نمت بالفعل نوماً عميقاً أنساني بعض متاعب النهار .. واتضح لي فيما بعد أن كلمة (مبسوط) عند أهل العراق معناها (مجلود) أو (ممدود) .

وفي الصباح قدمت لي الممرضة فطوري .. وتركته بين يديَّ ، فاستحييت أن أطلب معونتها ، وقلت في نفسي : ليتها كانت من نوع آخر .. وجاءنى النوع الآخر في تمام الساعة السابعة صباحاً .. بعد أن انصرفت ممرضة الليل ، فقد كان لابد من اثنتين إحداهما للنهار والأخرى لِلَّيْل !

إلى الدرجة الأولى

كان اللون الأبيض في شعرها أكثر من اللون الأسود .. ولم أتأمل مظهرها كثيراً ، فقد كانت حركتها موضع تأملي .. تناولت كأس الماء وغسلتها وأعادتها إلى موضعها ، وتفقدتْ حوائجي بدون أية إشارة مني ، وخرجت من الغرفة وعادت لتقدم لي كأساً من عصير الليمون المثلج ، وكرَّرت ذلك مراراً كلما فرغ الكأس .

كانت تتحرك باستمرار ، وكانت في هذه الأثناء تبتسم .. من قلبها .. لا من شفتيها .

ذكرتني تصرفاتها بحنان الأم ، فشعرت بالطمأنينة لأنني وجدت هذا الحنان .

ثم .. ثم جاءت لِتَلُمَّ شَعْثِي .. ولم أفهم شيئاً ، فقالت : إن غرفة في الدرجة الأولى قد خَلَت الآن .. وسننتقل إليها .. وكنت قد طلبت ذلك من المستشفى .

وتصورت الوحدة في الدرجة الأولى بعد أن ألفت العراقي ولعله ألفني أيضاً .. ولكنى تذكرت أننى لن أكون وحدى هناك .. سيكون معى هذا القلب الحنون في النهار .. وتذكرت الليل وممرضة الليل ، فجزعتُ ، واضطربت أفكارى .. ثم ودعت العراقي وأنا حزين لفراقه .. لقد جمعتنا قصة الألم في زمان ومكان واحد .. وتاريخ الألم والمشاركة في الألم يظل حياً — في الغالب — وإن كان تاريخاً قصيراً ، وإن مات الماضي أوصار نسياً منسياً !

وقال العراقي وهو يصافحنى : سأزورك .. قلْت : شكراً .. وزارنى حتى بعد أن تركَ المستشفى .

حملت الممرضة ذراعي على يديها .. ومشت أمامي إلى مقرى الجديد في الدرجة الأولى .

وشعرت بكياني بعد أن تمدّدت فوق السرير وحدى في الغرفة ..

وأخذت أتفحص ما حوالي .

كان كل شيء في موضعه .. كأرض الغرفة التى كان البلاط الناعم المفروش عليها يشبه الحرير ، وجاء من يمسحه بالماء ، وحيَّاني وأخذ يمسح البلاط وأنا أتأمل حيويته وحركة يديه ، وأخذت أغبطه لأنه ماسح بلاط يتمتع بالعافية .. وبيديه ، عندما رفع رأسه إلى السماء ودعا ليمناى بالعافية !

وأدرت رأسي إلى خارج الغرفة .. كانت الحركة أمامي في الممر لا تكاد تفتر .. عربة تحمل الأدوية واللفائف ، وخلفها من يدفعها ثم يرجع بها ثم يعود .

وفتيات يلبسن ثياب التمريض .. بعضها أزرق .. وبعضها أحمر .. وَالْأَنْدَر هو الأبيض .

وسألت ممرضتى عن حكاية الألوان ، فأجابت : بأن اللون الأحمر تلبسه الممرضة التي لم تكمل دراستها في الجامعة ، فهى تدرس عملياً في المستشفى .. والأزرق لمن تواصل دراستها نظرياً في الجامعة وعملياً في المستشفى .. والأبيض لمن أكملت دراستها في الجامعة وظفرت بالشهادة ، وهو اللون الأول الذي تلبسه رئاسة التمريض وما إليه في المستشفى ، وكان هو اللون الذي تلبسه هي .. وتلبسه ممرضة الليل .

كانت الألوان كلها جميلة عليهن ، وهن يؤدين الواجب رشيقات كأنهن يسبحن بين الغرف .

وخيل إليّ أن الأنوثة قد اختفت من وجوههن .

كنت أتخيل الملاك وأتمثل صورته كلما أسرعت ممرضة إلى الغرفة المقابلة لغرفتي ، أو إلى الغرفة الثانية التي كنت أراها أيضاً من فوق سريري .

كان في الأولى مريض يضغط الجرس .

وفي الثانية مريض يتوجع كثيراً .. وكانت في ملامحه نضرة الشباب ... وتذكرت ــ وأنا أنظر إلى من كانت تقف عند رأسه .. ثم عند باب الغرفة .. ثم تجلس .. وتتحرك باستمرار .. حتى تنصرف مع من كانوا معها حول نضرة الشباب ــ تذكَّرت عيون الْمَهَا وشعرَ الشعراء فيها .. وفي القوام الفارع ، وأوصافه البارعة كلها باختصار .. وقلت في نفسي : سعيدٌ من تنظر إليه عيون كهذه نظرات غير التي تخيلت أنها كانت ترسلها إلى أي شيء يستحق العطف في كيان أي شخص مريض !

ثم قلت للممرضة ــ القلب الحنون ــ وهي تودعنى في المساء بعد أن تناولتُ من يديها العشاء : سأتناول فطوري من يديك أيضاً ، لا من يديها هي .. وكانت هي ــ ممرضة الليل ــ قد دخلت في هذه الأثناء !

كنت قد سألتها في الليلة الماضية عن اسمها ؛ فلم أفهمه ، وتبيَّنْتُ أننى سأخطىء كثيراً في نطقه ، فسميتها من عندى .. وقبلت التَّسْمِيَةَ .

كانت من الأرمن ، ولكنها كانت تجيد لغات أخرى هي الإنجليزية والفرنسية والتركية .. وتتكلم العربية إذا لم تجد بداً من أن تتكلم بها ، وأخذت تحدثني بهذه العربية عن نفسها وعن ماضيها الدراسي في الشام .. وأخذت أتثاءب وأستعد للنوم .. لا سيما عندما بدأت تتحدث إليّ عن خطيبها في الشام !!

وكانت المروحة تلف وتدور عند قدميَّ .. ومع هذا كان الهواء ساكنا لا يتحرك ولو كما كان يتحرك في غرفة الدرجة الثانية .

ثم .. ثم .. ما أحلى وأطيب شخير العراقي في غرفة الدرجة الثانية .. إنه أحسن كثيراً من هذا الذي أسمعه الآن كلما أغمضت عيني .. طق .. طق .. ط ط ط .. قْ .. باستمرار .. ما هو ؟ لا أدريه ولا تدريه هي عندما سألتها عنه ، وهي مستمرة في حديثها عن خطيب المستقبل ، واتضح فيما بعد أنه صوت حركة تعالج خراباً في (مواسير) المياه .. بعد أو حوالي منتصف الليل !

ولا أذكر الآن كيف انجلى الليل الطويل وتنفس الصبح ، فحقنتني بالبنسلين ، وأعدتنى فوق السرير لحمام يتناول بعض أطرافي العليا مسحاً بالماء والصابون ، وتجفيفاً لها بعد المسح ، فكنت أخفض بصري إلى الأرض .. ثم أرفعه أحياناً ، فألمح الأنوثة المشرقة في خديها .. وعلى شفتيها .. وعينيها .. وألمح خطيب المستقبل وراءها .. وألمح ذراعى وراء اللفائف ، فأنكّس طرفي .. وأستغفر الله .!!

الأسـبوع القـادم

كنت أتناول فطوري على السرير عندما قدمتْ شُلَّةٌ من الأطباء .. في مقدمتها الدكتور جـ. دى جيان .. والذين معه ممن كانوا يتمرنون عمليا في المستشفى بعد أن أكملوا الدراسة في الجامعة .. وكان الطبيب الحجازي بينهم .. ولكنى نسيت صورته يوم قَصِّ الجبس عن يمناى .

وأخذ الدكتور يتأمل لوحتى .. وفيها ـــ كما أظن ـــ سِجِلُّ أحوالي بما في ذلك درجة الحرارة التي كانت تؤخذ مراراً في اليوم والليلة .. وكانت كسائر اللوحات في عربة تدفعها ممرضة رئيسية بين يدي الأطباء إذا زاروا مرضاهم في الصبح والمساء .. وأبدى الدكتور إعجابه بما سجلته اللوحة .. وتأمل ذراعي ، فهز رأسه علامة الاستحسان أيضاً .

قلت : العملية .. متى تكون يا دكتور ؟

قال : غالباً في الأسبوع القادم .

وأخذت أحلم بالأسبوع القادم .. وتمنيت أن أقفز إليه قفزاً لو أمكن ذلك .

وبدأت أتخيل اليوم .. والساعة .. ثم الدقيقة .. والثانية .. تخيلت كل ذلك مضروباً في سبعة أيام .

وكانت الممرضة في هذه الأثناء تفك الأربطة عن ذراعي ، لِتُبَلِّله بالماء المطهّر ، ثم تضمّده ، وتضع تحته قربة الماء الساخن .

فأخذت أتأمل الجراح التي استغرقت باطن الذراع كله من المرفق إلى بداية الكف ، وأتساءل بشيء من اليأس أو الشك عما إذا كانت ستشفي هذه الجراح في أسبوع ؟

وأفقت من تأملاتي على صوت بعض من قدم لزيارتي من الأصدقاء .. كان فيهم من تربطني به علاقة المعرفة أو الصداقة ، وكان فيهم من لم أعرفه من قبل .. كانت زيارة الذين لا أعرفهم تسعدني ، وتملأ قلبي بالشكر الصامت ، وتغمر أعماقي بالامتنان لمشاعر الإخاء التي تدفع الإنسان لمواساة أخيه الإنسان ، إما لأنه مواطن ، أو لمجرد أنه إنسان فقط .

ما أكرم هذه المشاعر .. إنها من ملامح الطريق إلى الإيمان بالله .

إنها مشاعر كريمة لا ترقى إليها شبهات الرياء والمجاملة في زيارة الذين أعرفهم .. وطلب أحدهم أن يشرب .. وعندما قدَّمت كأس الماء له تلك الممرضة التي كانت في البداية بمثابة الأم أو القلب الحنون ، خيل إلىَّ أن ملامحها كانت تتأفف .

وكنت أود أن أقدم لزائري شيئاً غير الماء .. ولكنها قالت : إن نظام المستشفى لا يسمح بذلك ، لأن المستشفى لا يرغب إطالة جلوس الزائر .. وأضافتْ أن الماء قد لا يقدم له أيضاً إذا روعيت الطريقة الأمريكية المتبعة في المستشفى بدقة .

فسألتها أن تطلب ــ ولو من خارج المستشفى ــ زجاجات من الكوكاكولا .. وغابت .. ورجعت .. وقدمتها .. ولكن التأفف على ملامحها في هذه المرة كان ملحوظًا لغيري أيضاً .. فأخذت أعجب لتطورات القلب الحنون .. قلت لها وهي تناولني الغذاء : هل لك أهل ؟ قالت : نعم .

وأخذتْ تتحدث عن أهلها .. وعن أبيها المقعد في البيت من سنوات .. وعنْ .. ماذا ؟ لا أدري .. فقد سَرَحْت وأنا أتأملها في غيبوبة طويلة .

قصة أبيها .. وهذا اللون الأبيض والأسود في شعرها تحت المنديل الأبيض الذي تضعه على مؤخرة رأسها ــ كلون الملح والفلفل الأسود معاً .. أو كلون الرماد .. ثم قامتُها .. ووجهها .

وأشفقت وأنا أتأملها .

ولكنها رمتني بنظرة في هذه الأثناء ، كنت أتوقَّعها حزينة ، فكانت أقرب إلى التحدي .

خيل إليَّ أنها كانت تقول بعينيها من تحت النظارة :

ــ أنت وحدك الجدير بالعطف والإشفاق .

ثم .. ثم لم تحمل صينية الأكل .. بل تركتها .. وذهبت .. ورجعت حتى جاءت موظفة المطبخ وحملت صينية الغذاء .

ثم جسَّت نبضي وحرارتي وحقنتني بالبنسلين .. وانصرفت في تمام السابعة .. بعد أن بدأتْها بالتحية زميلتُها الصغيرة وهي تدخل الغرفة .



بين الليل والنهار

وهكذا بدأت أندمج .. في الدرجة الأولى .. أو في الحالة الوسط بين الحياة والموت .. في المستشفى .

أظل فوق المقعد المقابل لباب الغرفة .. أقرأ أو أفكر .. أو أتأمل المروحة .. والمريضَ النائم على سريره فى الغرفة المقابلة .. وحركةَ الممرضين والممرضات فى المستشفى .. وعربةَ الأدوية وهى تتردد باستمرار فى الممر .

ثم أتأمل ذراعى ..

ثم أحدث الممرضة أو تحدثنى بعربيتها الأرمنية ، وتطير أفكارى وتتشتّت ، فأعود إلى الكتاب ..

ثم يبدأ الصوت المزعج .. ط ق ، ط ط ط ق .. وأحب أن تسمعه الرئيسةُ المسئولة إذا طافت بالمرضى ، أو الطبيبُ المناوب إذا طاف أيضا بهم فى الليل .. ولكن الصوت كان يختفى .. وأتهيأ للنوم فوق السرير .

وكنت لم أتعود من قبل أن أنام على ظهرى ، فلم يعد فى إمكانى أن أنام إلا على ظهرى فقط .. وأتحيَّر كثيرًا وتتحير الممرضة معى حتى يتحقق الوضع المناسب المريح لذراعى وجراحاته .. وجسمى إجمالاً .

ثم .. تفك الأربطة عن ذراعى .. وتتكرر نفس العملية المستمرة ، وهى التَّطْهِيرُ بالماء .. واللفائف .. ثم تربط الذراع .. وتضع تحته قربة الماء الساخن ..

ثم تتركنى لأنام .. وتجلس على أى مقعد فى الغرفة .. أو تقف عند بابها .. وقد تغيب لحظة .. ثم تعود .. فأنشد معونتها على تحقيق الوضع المناسب المريح مرة أخرى لأن ذراعى يتألم ..

ثم تطفىء نور الغرفة ، لأننى لا أنام فى الضوء .. ولكنها تترك الضوء الباهت الخفى فى أسفل الجدار المقابل لسريرى ، لتكتب إلى خطيبها .. أو لتقرأ .. وأضغط أفكارى وأغمض عينىَّ فى هذه الأثناء لأنام .. فإذا بالصوت المزعج يطقطق من جديد .. فأفتح عينىَّ وتكون الساعة قد بلغت العاشرة .. وهذا موعد تناولها الشاى فى حديقة المستشفى .. ولكنها تعود غالبا قبل الحادية عشرة لتجدنى فى حالة صحو تام .

وقد تشعل الضوء لأقرأ .. وقد تسقينى كأسا من الماء المثلج .. أو من عصير الليمون .. ثم .. ثم تطفىء النور .

وأتحير معها حتى يتحقق الوضع المناسب المريح للمرة الثالثة .. أو الخامسة .. وتدوى الطائرات فى هذه الأثناء فوق المستشفى .. وهى ترتفع من بيروت أو تهبط إليها .. وكأنَّ سطح المستشفى هو المطار الجوى الذى تمر به قبل أو بعد مطار بيروت الدولى .. أو كأنما هي ستهبط فى المسنشفى .. وفى غرفتى بالذات كما قد أتخيل أحيانا .

ثم ترتفع أصوات أخرى من المستشفى كصوت طفل يبكى ، فأتصور الدواء فى حلقه ، أو الحقنة فى عضله .. وأتصور اللفائف ووجه الطفل بينها ، أو أى عضو من أعضاء جسمه الصغير ، فأتذكر عيالى .. ثم أنساهمَ فى الحال عندما يقطع الليل أنينٌ صارخ ، فأتصور العملية التى أجريت لمصدر الأنين فى النهار .. وأتصور مستقبلى .. ثم قد يتمزق نياط قلبى أحيانا ، عندما تشق حنجرة السكون آهاتُ أمهات يوشكن أن يقدمن للحياة مخلوقات جديدة فى جوف الليل رغم كلّ متاعب الحياة والمستشفيات ! ثم أتخبط كثيرا بين اليقظة وبين النوم .. حتى يكاد يغلبنى

النوم ، عندما يتنفس الصبح فأتنفس الصعداء .. وأتناول البنسلين .. وميزان الحرارة فى فمى .. ثم .. ثم أهبط من السرير قبل أن تشرق الشمس .. وبعد أن تمسح الممرضة جسمى بالماء والصابون .. كبلاط الغرفة تماما .!

وآخذ مجلسى على الكرسى فى مواجهة باب الغرفة .. وأتذكر المناصب العالية عندما تضع الممرضة خلف ظهرى وسادة ناعمة ، لِأُساير وضع يمناى على وسادة أخرى فوق كرسى آخر ..

ثم ترتب شؤونى ، وشؤون السرير ، وشؤون الغرفة .. ثم شؤون نفسها .. وتتطلع إلى المرآة فى الحمام وهى تُسَوِّى شعرها ونظارتها .. وتقف عند باب الغرفة .. وتتلفت إلى اليمين والشمال .. وهى تنظر إلى الساعة ، وربما تحدَثتْ فى هذه الأثناء مع ممرضة أخرى .. حتى يرتفع صوت حذاء يمشى على الأرض ، فى قدمى ممرضة النهار التى تدخل الغرفة عادة فى تمام الساعة السابعة .. وغالبا تبدؤها بالتحية ، فتجيبها هذه دون أن تنظر إليها بكلمة باردة تموت بين شفتيها .. ثم تضع حقيبتها فى الدولاب ، وتغير نظارتها وتقول : صباح الخير .. وهى تأخذ نبضى وحرارتى إن لم يكن قد أخذها الممرض المختص فى المستشفى ..

ثم تغيب وتعود وعلى يديها صينية الإفطار .. وتساعدنى على تناول الطعام ، فلا يعنيها أن يتناثر على الأرض شىء منه .. وعندما أشرت مرة إليه قالت : الآن يأتى أنطوان ، وهو اسم ماسح البلاط فى المستشفى .

ثم تقدِّم إلىّ الشاى والقهوة .. ولم يعد يعنيها أحياناً أن يتقاطر من الكوب ما يتقاطر .. فى الصحن .. أو على ثيابى ..

وأصبحت تتجاهل الطربيزة وحاجتها إلى المسح والتنظيف فى بعض الأحيان .. ولفتُّ نظرها مرة ، فبدا على وجهها وهى تمسح الطرابيزة أنها

غير مرتاحة .. ثم زمزمت بين شفتيها قائلة إن هذا من عملِ ... وذكرت اسم التى كانت تباشر المسح فى الغرفة ..

وكانت هذه لا تؤدى عملها في الغالب إلا بعد أن يقوم الأطباء بجولتهم الصباحية المعتادة يوميا .. فيتأمل الدكتور جي دى جيان لوحتى .. وهو يردد : نهارك سعيد .. ثم يبدى علامة الارتياح .. ويدير ظهره إليَّ قبل أن أجمع شتات أفكارى وخواطرى .

ثم أرتقى السرير وأستقبل نسيم الضحى مبللا برطوبة البحر .. وهواء المروحة البارد عند قدمي .. فتتراخى أطرفي .

ويكاد يسكرنى النوم عندما أفتح عينيَّ .. على حركات ماسح البلاط ، أو خطوات الحلاق .. أو حركات أخرى أتأمَّل التي تمارسها .. وأتأمل عينيها ، فأتذكر هيام بعض الشعراء بالعيون العسليَّة .. وأتأمل وجهها ، فأتذكر صورة القمر عندما يتخلف عن المغيب ــ أحياناً ــ إلى ما بعد الفجر ، وتلوح على صفحته علائم السهر الطويل .

ثم تمارس عملها ، فتمسح الطربيزة ، وأطراف السرير ، والدولاب ، والنوافذ ، وتجلو الغرفة كلها .. وتنصرف .

وأتناول كتاباً .. وتجلس الممرضة أمامى تحدثنى عن مرضاها السابقين .. ويثقل عليَّ الموضوع .. وأثقلُ من الموضوع أسلوبها ، فأتَناول كأس الماء ، ثم تملؤه ــ ان طلبتُ أنا ــ بتثاقل ملحوظ .. ويرتفع صوت حذائها على الأرض وهي تمشي ، حتى يكون في سمعي وفي بصري كخيال العسكري وخطوات العسكري .. إلى أن تعود وتضع كأس الماء فوق الطربيزة كيفما اتفق ولو نزلت منه قطرات إلى الرخام الأبيض على « الطربيزة » .

وأحس أنها ستواصل الحديث أو أنها ستغير الموضوع ، وتنتقل إلى سيرة مريض آخر من مرضاها ، فأشير إلى القربة الساخنة لتضعها تحت ذراعي ، ولا تغيِّرها أحياناً إلا بعد أن تجادلنى في أنها لا تزال ساخنة !

وقد يدخل الأصدقاء الزائرون في هذه الأثناء .. حتى يصيح الموظف المختص في الميكرفون بالعربية .. ثم بالإنجليزية : حان وقت الغذاء ، فالمرجو من الزائرين مغادرة المستشفى حالاً .

وأحسبه كان يقول هذا المعنى بالإنجليزية بألفاظ أرق من هذه الألفاظ .

وكانت تطوف بالغرف ـــ بعد نداء الميكرفون ـــ إنجليزية .. ، وعرفت أنها إنجليزية بذكائي وحده ، فقد ذكرتني ملامحها بوقاحة الإنجليز !

كان يكفي أن تقف على باب الغرفة ليعرف الموجودون أنها تطردهم ، وتبدو ملامحُ الاستعمار في وجهها كملامحه في وجه أي مستعمر بريطانى لئيم وهذا سر نجاح الوقاحة .. بريطانيا .!

وتقدم الممرضة غذائى .. وأحيانا كانت تنصرف قبله وأحيانا بعده لتتناول غذاءها .. وتعود .. وقد استحال صوت حذائها إلى توقيعات صارمة كالعقاب ، أميِّزها بين توقيعات أية خطوات أخرى أسمعها فى المستشفى .

وبدأت تتخلى عنى أحيانا بعد أن أدخل الحمام لأغسل يداً واحدة فقط .. ثم تقدم لى الشاى فى كأس تخيلتْ أنها ترضى الذوق العربى فى شرب الشاى ، فجاءت بها من بيتها .. وأبقتها فى الدولاب .. ولابد من أن أشرب بها لرد مجاملتها على الأقل ، حتى ولو حرقتنى لأنها ملساء من جميع الجهـات .

وتمر الْأَسِرَّةُ أمامي وأنا أشرب الشاي .. الأسرة التى صعدت فى الصباح إلى غرفة العمليات ، نزلت وعليها النائمون نوماً عميقاً بعد العمليات ، فأتصور مستقبلى وأنا أتمدد على السرير .. ويحلو لى أن أنام ، ولكننى أتذكر الليل فأعتدل فى مجلسى بقدر الإمكان وأتفادى النوم نهاراً لأتفادى الأرق ، وأحدثها عنه فتصف لى كوباً من الحليب .. أشربه قبل النوم .!

وتملؤ الشمس فى هذه الأثناء جوَّ الغرفة ، فتسدل ستار النافذة ، ثم تحاول رفعه ــ غالبا ــ اذا تخطتنى شمس العصر قليلا إلى باب الغرفة .. وتتأهب للانصراف بعد أن تحقننى بالبنسلين .. وتأخذ حرارتى .. وتظل الساعة تحت عينيها باهتمام كبير ، حتى تقف قبل السابعة بدقائق على باب الغرفة .. وأحيانا تنصرف ولو لم تأت ممرضة الليل .. وعرفتُ أنها تحتاط قانونيا لذلك بتقديم ساعتها عن ساعتى دقائق لتنْصرف معها أو قبلها .. وأيتهما أصح ؟ ساعة المريض الغلبان .. أو ساعة الممرضة !؟

ثم .. ثم يبدأ الليل الطويل !



فى الانتظـــار

ليل طويل يذكرنى بليل امرىء القيس ، فأتخيله نائما على السرير يهذى بانفعالاته إذا أقبل الليل .. ويتمثله كموج البحر .. أرخى سدوله .. إلى .. إلى أن أُنْسَجِم .. وأردد معه — ولو فى سرى — ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى .

وحينئذ يرتفع صوت الممرضة وهى منسجمة فى حديثها مع من لا أدريه على باب الغرفة .. وتقفز إلى خيال امرىء القيس صورة العذارى اللاهيات ، والناقة التى ذبحها لهن قبل أن يسبحن فى الغدير .

وتجلس على الكرسى وفى يدها مغزل ورقعة تنسجها لأية ممرضة أخرى من باب المعونة أو التسلية .

ومر أمامى طبيب رجحت أنه هو الطبيب الحجازى الذى نسيت صورته يوم قص الجبس عن يمناى .. فانتظرت حتى رجع من آخر الممر .. وقلت : يادكتور : تفضل .. وأشرت إلى الكرسى .. ولكنه لم يجلس .

قلت ، من غير مقدمات : متى يمكن أن تطيب هذه الجراح فى ظنك يادكتور ؟ وكان جوابه عمليا ، فقد كشف عن ذراعى .. وأزاح اللفائف .. ولم أتألم لاجراءاته كما كنت أتألم إذا نزعتها يد الممرضة .. ثم ترك ذراعى وهو يتفاءل كثيرا بمستقبل الجراح . ولكن بدون تحديد .

ورفعت ذراعى بيدى اليسرى ، وظللت أنتظر أن تضع تحته الممرضة لفائف جديدة .. وتبللها بالماء المطهر كالمعتاد .. ولكن الممرضة كانت

مشغولة بالغزل والنسيج وبمعونة الأخريات ، فلم تُحضر هذه اللفائف ولا الماء المطهِّر من قبل .. وظللت أنتظرها ، وأتألَّم ، حتى عادت ، فألقيت عليها ــ وهى تلف ذراعى ــ درساً طويلا فى الواجب الذى أهملته لتساعد الآخرين .

ووضعتُ رأسى بعد ظهرى على السرير .. وأخذت أفكر فى الأرق .. وطارت أفكارى إلى ديل كارنيجى وتعليماته التى رسمها فى كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) .

كان يوصى بالاسترخاء التام قبل النوم ، فأسترخى وأغمض عينى ، وأعانق خيال ديل كارنيجى .. ثم أتخلص منه لأعانق أفكارى التى تحفَّزتْ من جديد .

كنت أفكر فى الأرق .

وتنحنحتُ ، ثم سعلتُ فلم تحفل بى الممرضة كعادتها .. وتأملت وجهَها فى الضوء الخافت ، فعلمت أنها ماتزال غاضبة بعد الدرس الطويل الذى ألقيته عليها فى إهمال الواجب .. ولما استمر اغضاؤها وهى تنظر إلى الباب ــ سألتها أن تسقينى .. ثم ألحقت الدرس الطويل بمحاضرة فى نفس الموضوع ، ولكن بأسلوب أرق فى هذه المرة .. أسلوب العتاب !

ودافعتْ عن نفسها بعربيتها الأرمنية .. ولا أدرى الآن كيف جاء ذكر ممرضة النهار على لسانها ــ وكنت أطريتها لها من قبل ــ فاستفاضت فى الكلام عنها وعن شموخ أنفها كلما كلّمتْها أو بدأتْها بالتحية .

ونمت بعد الشكوى والعتاب .. وبعد نصف الليل ــ نوما غير عميق .. وفى خيالى شيء كأطياف العذارى !

ويستمر الصوت المزعج إياه .. أو هو صوت ماسورة الماء الساخن التى تنقل الماء وتمر به من غرفتى إلى الطابق الأعلى فى المستشفى .

ثم .. ثم .. الأنين .. والصراخ .. والآهات ــ هابطة أو صاعدة من المستشفى .

حتى ينجلى الليل .. وتتطور أحلام العذارى إلى قصيدة ، وأفكر فى مطلعها .. وأنا أنظر إلى الغرفة المقابلة .

كان فيها وعلى بابها ــ امرأة وطفلة وآخرون .. حتى الساعة الثانية عشرة ، فانصرفوا ودموع المرأة والطفلة على خديهما .. لأن نظام المستشفى لا يسمح لزائر بالجلوس بعد الثانية عشر ، ولأن مريضهما نزيل الغرفة قد أخذوه لغرفة العمليات من الساعة السابعة صباحا .

وبدأت أقْلق نيابة عنهما ، وبالإصالة عن نفسى ، حتى نزل محمولا على السرير .

وتخيلتُ صفرة الموت وأنا أنظر إلى لون وجهه بعد العملية .. وتصورت مستقبلى على السرير وأنا أتذكر الماضى .. ماضىَّ أنا .. وماضى نزيل الغرفة المقابلة بالأمس وهو يتحدث كما لو كان فى سهرة هادئة .. يدخِّن بِنَهَم ، ويبدو عليه أنه مطمئن كل الاطمئنان ، وأنه رابط الجأش إلى حد بعيد .

واستمّر رابط الجأش .. إلى أن حضّروه للعملية حوالى منتصف الليل ، ثم إلى أن أخذوه بعد السابعة صباحا إلى غرفة العمليات .. وعندما رجعوا به قبيل الثانية بعد الظهر تحولت رباطة الجأش على جسمه وملامحه ــ إلى همود عميق ، وإلى صفرة تذكر بلون الموتى .

وجاء أهله بعد العصر ، فلم يتكلم ولم يتحرك ، وشعرت بالحاجة إلى البكاء عندما لمحت زوجته وابنته .. وأصابعهما على الخدود تمسح الدموع .. ثم انصرفوا .. ولم يتكلم هو إلا فى نصف الليل ، ولم يزد على أن قال : آه ، فحمدت الله على سلامة حياته .. وكنت أغمض عينىَّ

لأنام ، عندما سمعته يكرر الآهات .. وهى لا تكفى لاستدعاء الممرضة بدون جرس .. فرجوت ممرضتى أن تذهب إليه ، ورجعتْ بعد أن ساعدت على تغيير وضعه فوق السرير ، وحدثتنى عن العملية التى أجريت له فى ظهره .

وطارت أفكاري إلى المستقبل فى هذه الأثناء .. حتى أشرق الصبح .

وتتعاقب الصّور علىّ ، وتضطرب وأنا معها برغم أننى مقيم فى الغرفة .. وعندما فكرت الممرضة فى أن أبرحها ولو لشم الهواء فى حديقة المستشفى ، عادت فاستدركت وهى تتأمل ذراعى .. وَأَمَّلَتْنِى فى سهولة الحركة والانتقال بعد العملية قريبا ، وحينئذ نشم الهواء بعد العصر فى الحديقة .

كانت الصور التى تمر علىّ وأنا فى الغرفة كافية لأن أعيش فيها ، فكيف إن تخطَّيتها إلى هذا العالم الزاخر بالمرضى ، وبالحالة الوسط بين الحياة والموت ؟ ..

ولهذا فضلت أن أعيش فى الغرفة باستمرار .. من السرير .. إلى الحمام .. ثم إلى مجلس الصباح والمساء أمام باب الغرفة .

وكنت أرى المريض المقابل من مجلسى ، وأبدؤه بالتحية .. وأنا أتأمل عملاقيّته ، وأتبيَّن على وجهه سيماء النعمة ودلائل النجاح بل والسعادة ، كما أَتَبَيَّنُ الشيب فى رأسه الضخم .

وكان أهله دائما عنده ، وقد طفح البشر فى وجوههم وهو يتكلم فى اليوم الثانى والثالث بعد العملية .

ثم وجدت أن زيارته وَجَبَتْ ، لأننى أدور فى فَلَكِ الغرفة .. أما هو فإنه على ظهره دائما فوق السرير .. وأخذت الممرضة ذراعى على يديها ..

ومضينا إليه ثم عدت بعد أن سمعت قصته ، وبعد أن أخذت فكرة عن قصص بعض الغرف المجاورة .. وأنا أعبر الطريق بين الغرفتين .

عملية فى سلسلة ظهره هو ..

وفى الغرفة المجاورة لغرفتى مصابٌ بالكسر فى العامود الفقرى ، فهو قد لا يُجْبرُ له كسر بالمرة ، ولكنه يعيش في المستشفى : إلى أن يأويه مكان آخـر !

وهناك حركة هامّة في أول غرفة في أول الممر .. إن فيها ولاشك قصة مريض من هذا القبيل .. وتفاءلت ـــ وأنا أنظر إلى ذراعى ـــ وقلت : أمره يهون .. ورجحت سرّاً فى نفسى أننى قد أخرج من المستشفى قبل هؤلاء ، وقبل مريض الغرفة المقابلة على الأخص .. هو فى الظهر .. وأنا فى الذراع .

وتذكرت ماسمعته من قبل ، وفى مستشفى الزاهر على الأخص .

من رأى مصيبة سواه هانت مصيبته عليه .. هل هى حكمة ؟ ومن هو قائلها ؟ لا أدرى .

ولكن هل يهون عليَّ ألمى عندما أعرف آلام الآخرين ؟

هل أشعر بأننى سعيد إذا رأيت ألماً أضخم من ألمى فى إنسان آخر ؟ أو أتمثَّل ألمه فى إحساسى ، فيكون ألمى أكبر ؟ نعم يجب أن أحمد الله ، لأن ألمى أقل من آلام الآخرين .. ولكن الإنسان عندما يشعر بمأساة أخيه الإنسان ، كما لو كان هو موضوع المأساة ، ويحمدُ الله أيضاً كل الحمد بمثل هذا الشعور ، كيف تهون مصيبته عليه بالقياس لمصائب الآخرين ؟

إنها لاتهون بل تتضخم ، فالقسوة هي القسوة عليّ وعلى الآخرين وعلى أي حال لاسيما إذا جهلنا المبررات .

واستغرقتنى أفكارٌ كهذه صحوت منها ، وأيدى الممرضات تدفع سريراً إلى الغرفة الثانية المقابلة التى كنت أراها أيضاً من غرفتى ، والتى رأيت فيها عيونَ المها ونضرةَ الشباب من قبل .

وخيّل إليَّ عندما نزلت فيها هذه المريضة بالأمس أنها من بلادى لأنها كانت مُحَجَّبَةً من قمة رأسها إلى أطراف قدميها .. ثم ظهر أنها من بلد عربى آخر من البلاد التى لاتزال تحارب السفور .

وتركتها الممرضات نائمة فوق السرير .. ثم عادت إليها إحداهن ، ودفعت الإبرة فى ذراعها .. وانصرفت .. وتركت الباب مواربا ، فرأيت المريضة تتحرك ولم يكن فى غرفتها أحد ، فخشيت أن تقع على الأرض ، ولكن الممرضة لم تذهب إليها عندما سألتها ذلك ، بل ذهبت إلى ممرضات المستشفى ، لتقوم إحداهن بالواجب .. ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى ترفض فيها مساعدة الآخرين .

كانت دائما تقول : أنت مريضى .. وأكاد أتميز من الغيظ وهى تردد هذه العبارة ، فأتخيلها سعيدة بمفهومها ، وأتخيل قصتى على لسانها فى المستقبل .

وبدأت أشعر بأنها صارت تتثاقل فى خدمتى ، ويبدو مجلسها أمامى على الكرسى وكأنه يغيظنى .. إما أن تتكلم ويضحك وجهها بدون مناسبة للضحك ، وإما أن تصمت وتبدو على وجهها ملامح التبرم والأنفة معاً .. وإذا مشت أرسلت على حركاتها نفس الملامح ، وارتفع صوت حذائها عاليا على الأرض وهى تتقصع وتتثنى فى مشيتها .

وبدأت أتشاءم ، لأن أغلب المرضى الذين تحدثنى عنهم ، طالت إقامتهم فى المستشفيات .. وخيل إلىّ أننى المريض الوحيد الذى لم تجر له العملية فى اليوم الثانى بعد دخول المستشفى ، كالمرضى الذين هم أمامى وحوالىَّ .. فمتى تكون العملية ؟

عقارب الساعة

كان المستشفى طرازاً أمريكياً ومن الدرجة الأولى .. ولكنه بدأ يستحيل فى إحساسى إلى (زِنْزَانَة) .. وأتذكر الآخرين من الأهل والعيال الذين يَحْيَوْن ويعيشون معى بأفئدتهم وأرواحهم — وإن كانوا بعيدين عنى وعن المستشفى — فتضيق (الزنزانة) علىَّ وأكاد أختنق .

وبدأت أتذكر الفراغ الذى كنت أحلم بدنياه قبل الحادث .. كنت أحلم به وأتمنَّاه .. وقلت يوماً لأحد أصدقائى : أريد أن أعيش أياماً كثيرة وحدى .. وحدى فقط .. ومعى كل هواياتى وفى مقدمتها الكتب .. فلماذا لا أحب الفراغ الذى كنت أحلم به وأتمناه بعد أن تحقق — وصحَّت الأحلام ! — فى المستشفى . ؟

ويتألم ذراعى فى هذه الأثناء .. ثم يدخل الدكتور مع مساعديه ، ويتأمل لوحتى وينصرف وهو يهز رأسه علامة الاستحسان .

وأعود إلى السرير وقد ارتفعت شمس الضحى .. وأنظر إلى الساعة بعد أن أُضَعُها على شمالى .. وأقرأ ، أو أنام .. حتى يدخل الحلاق ، أو صديق جاء لزيارتي .. وينصرف .. ثم أقرأ .. أو أفكر ولو كانت الممرضة تحدثنى عن مرضاها .. وأتأمل الحركة المستمرة على باب الغرفة إلى اليمين وإلى الشمال فى الممر .. ثم يأتى صديق أو أصدقاء لزيارتى .. إلى أن لا أجد موضوعاً للحديث .. ثم تتحرك الممرضة لتغير اللفائف وتضع قربة جديدة ساخنة تحت ذراعى بعد إلحاح منى فى الغالب ! .. ويزعجنى صوت حذائها من جديد .. ثم تتحدث أو تصمت ، وأشرب عدة كؤوس مثلجة

في هذه الأثناء .. ثم أعتدل فى جلستى لمصافحة آخر صديق يجىء غالبا فى موعد انصراف الزوار من المستشفى .! وأسمع بأذنىَّ صوت الكسور وطقطقتها فى ذراعى حول المرفق .. ثم أنظر إلى الساعة بعد كل هذا التاريخ الطويل العريض ، فأجد أنها قد بلغت الثانية عشرة .. وكانت قبله حوالى العاشرة .!

وتقدم إلىَّ الممرضة غذائى أو تؤخره إلى أن تعود من غذائها .. ثم أقرأ ، وأنام ، وأصحو ، وتقدم إلىَّ الشاى أو القهوة .. وأفكر .. وأنظر إلى الساعة فأجد أنها الثانية والنصف .

ثم لا تغرب الشمس إلا بعد أن أكون قد قرأت حتى كَلَّ نظرى ، وفكرت حتى دار رأسى ، وعشت فى صور مختلفة .

هذه التى تروح وتجىء أمامى وهى تدخن بعصبية ، ثم ترجع مع مريضها من الحديقة إلى غرفته بعد غرفتى فى نهاية الممر ، وعليها ملامح القلق ، وعليه طابع الألم والإعياء .

وهذا الشاب الذى يدور فوق أربع عجلات ، وكان يتأبط العُكَّازين ويتمرن عليهما يوم دخولى المستشفى .

وأعود إلى الكتاب الذى كنت أقرأ فيه .. ثم أتمدد لأتناول البنسلين .

ويحلُّ الليل الطويل ، فأضع نفسى ــ بالاشتراك مع الممرضة ــ على السرير ... وأتحدث إليها أو أستمع منها ومن أى ممرض يزورنى ــ وربما كان يزورنا معاً .. أنا .. والممرضة ! ــ

ثم تبلُّ جراحى ، وتضع قربة الماء الساخن تحتها كالمعتاد .. وتنصرف لتتناول عشاءها بعد العاشرة .. وتعود لتجدنى أفكر فى الأرق وفى تعاليم ديل كارنيجى ... وتسند وجهها إلى كفيها على طرف السرير فى

مواجهتى .. وأغمض عينيَّ مراراً .. وأنا أستغفر الله .. ثم تسألنى أن تحقننى بالمورفين لأنام ، ولكننى لا أوافق .

وتدبُّ حركةٌ مفاجئة فى المستشفى .. عربة الأدوية .. والطبيبة .. وعدة أطباء ، لأن فى نهاية الممر بعد غرفتى مريضاً ، وقد كان طبيبا يعالج المرض والمرضى .. وفى الصباح أخذوه ميتا على السرير بعد أن أغلقت أبواب غرف المرضى فى الممر .

وضحكت لإشارة مريض في الغرفة المقابلة بعد أن فتحت الأبواب ، فقد نَفَخ أصابعه على فمه ثم أرسلها إلى الهواء فى متابعة الطبيب المرحوم ؟!

ثم يبدأ النهار من جديد .. وأقرأ .. وأفكر .. وأسأل عن أحوال المريضة فى الغرفة المجاورة التى كانت على باب غرفتها طفلة صغيرة تلهو .. وجزعت عندما علمت أنها حفيدة المريضة التى ماتت بعد نصف ليلة اليوم الثالث أو الرابع من أيامها فى المستشفى .. وقلت للممرضة وهى تقفل الباب .. لماذا ؟ وهل تظنين أننى أخاف من الموت ؟!

وبدأت أكره الفراغ ، وأتصور الزمن كابوسا ثقيلا يجثم على صدرى باستمرار .. كانت عقارب الساعة تغيظنى ، فلا ينتقل عقرب الدقائق إلا كما أنتقل أنا لو كنت أمشى على قدميَّ ، حائراً ، فى الرّبع الخالى .

وأحسست بالدقيقة وبالثانية .. وبالساعة وباليوم .. وفرغت من قراءة كتبى ، ولم أعد أجد ما أقرأ .. وبدأت تضطرب أفكارى .

ثم لم يبخل علىَّ الأصدقاء الزائرون بالكتب والمجلات .

وجاءنى بينها ـــ وأنا فى محنة الشعور بالزمن ـــ عدد من أخبار اليوم وعدد من روز اليوسف .

كان فى الأول مقال طويل للعقاد كتبه بعد أن أصيب فى الساق وفى إحدى اليدين إن لم تخنى الذاكرة .. كان هذا فى صيف عام ١٩٥٤ فى الإسكندرية .. وتحدث العقاد فى هذا المقال عن جملة مسائل كعادته .. ومن ضمنها شعوره بالزمن فى المستشفى ــ تحدث ولكن بأسلوبه الذى قد يصبح ثقيل الظل أحياناً !

وكان فى الثانية مقال لإحسان عبد القدوس عن شعوره بحركة الزمن وهو فى سجنه الأخير .. وكيف أخفى الساعة بعيداً لئلاَّ يراها ، وتساءلت عما إذا كان هذا يميت الإحساس بالزمن فى المستشفى ، أو أنه سيظل متوترا كما كان .. بل وأكثر مما كان عندما أخفى الساعة ، فلا أعرف عن الوقت إلا أنه كابوس جاثم على صدرى باستمرار .؟؟

وشعرت بالقلق وبدأت أتذكر ديل كارنيجى من جديد .

الفراغ هو عدو كارنيجى .. وهو مصدر القلق .

اشغل نفسك وأفكارك .. ولكنى كنت أشعر بأن أفكارى أقوى منى .. أمسك الكتاب وأقرأ ، وأستمر إلى آخر الصحيفة ، ثم أجد أننى لم أفهم شيئاً ، فأعود أقرؤها من جديد ، وأتوسل إلى كارنيجى أن ينقذنى .. ثم أجرى وراء أفكارى ، كالعفاريت تماما .. أو الأشباح .. حتى أحبسها فى عينى .. ثم لم يعد عندى ما أقرؤه إلا القرآن .

إذا انتصر القلق ؟

وحاولت أن أتعلم اللغة الإنجليزية .. وكان عندى كتاب يعلم الإنجليزية بالعربية ، فبدأت أحفظ الكلمات ، وأنسى ما أحفظه أحيانا .. وأتذكر محاولاتى السابقة لتعلم الإنجليزية ، وكيف كانت تَتَحَطَّم على صخرة الحفظ ، فأطوى الكتاب ، ثم أرجع إليه لِأَفِرَّ من حديث الممرضة .. أو من تأملاتى ومن هذا الفراغ الذى أمقته كلما نظرت إلى الساعة ، ووجدت أن عقاربها تتحرك بمنتهى الهدوء بين الثوانى والدقائق .

وبدأت أردد ما أحفظه لئلا أنساه .. والممرضة تستمعُ إلىَّ والكتاب فى يدها .. وأعجبها أننى طالب ذكى ، فأخذت تشجعنى ، وأنا أفكر فى أنها لم تعد ممرضة فقط ، بل أستاذاً أيضا .!

وحتى ممرضة الليل هزَّت فى وجهى عصا الأستاذية .. وقالت ، وهى تُذاكرنى : ينقصك ــ حقاً ــ أن تتعلم اللغة الإنجليزية .. قلتِ : أنت تعرفينها وتعرفين لغات أخرى .. وقاطعتنى بكلمات فيها معنى التطاول والادعاء .. قلت : إنك لم تزيدى عن ممرضة .. لها خطيب فى الشام ، ولعله سائق تكسى .. وأنت بلغاتك كلها قد تظلين فى أول السُّلَّم .. إلى الأبد ، هذا إذا لم تسقطى على الأرض .

ثم جاءت موظفة رئيسية فى المستشفى ، وأبدت إعجابها لأننى أتعلم اللغة الإنجليزية ، فقلت للمرضة :

ــ اسأليها : كم لها فى بيروت ؟

قالت : تسع أو ثمانى سنوات ؟

قلت : ولماذ لم تتعلم لغة العرب فى هذه الأثناء وهى تحيا وتعيش فى بلاد العرب ؟

قالت : لأننى لم أجد ذلك ضرورياً .

قلت : وأنا أيضا لا أجد أية ضرورة لتعلم اللغة الإنجليزية الآن .. وطويت الكتاب .

ولكن كيف يمضى هذا الفراغ ؟ وماذا أفعل إلى أن تطيب الجراح وتجرى العملية .؟

قرأت كل ما عندى وكل ما جاءنى من الكتب والصحف .. ورجوت بعض الأصدقاء أن يحملوا إلىَّ ما أقرأ ، فحملوا إلىّ سخفاً بقلم بعض الشحَّاذين من بعض البلاد الشقيقة ، ممن يستحقون الرثاء هم والبلاد التى تشجعهم على الشحاذة .

وقلت للممرضة : استعيرى لى كتبا من أى مريض يتمتع بهواية القراءة وخذى له ما عندى من الكتب والروايات .. فغابت ورجعت وفى يدها عدة كتب ، قلت : ممّن هذه ؟ فأشارت إلى الشاب الذى كان يتجوَّل دائما فى المستشفى على أربع عجلات ، ولا ينسى الأناقة ويحرص عليها وهو فوق العجلات .

كانت كتبه خليطاً من الإشتراكية .. ومن « معالم الحياة العربية الجديدة » : هذا الكتاب الذى نال جائزة جامعة الدول العربية بحق وحقيق .. وكان ممتعاً لأنه ناقش المشاكل بالتفصيل .. ولو فعلت ذلك الجامعة لما انتهى أمرها إلى ما انتهى إليه .

وجاء صاحب الكتب فوق عجلاته يزورنى فى الليل بعد السابعة ، ووراءه فتى يدفع عجلاته .. كانا معا فى غرفة واحدة من الدرجة الثانية ..

هذا من نَجْد ، وصاحب الكتب من لبنان ، وعلى صدر الأول وكتفه تحت البيجامة لفائف وأربطة ، سألته عن قصتها ، فحدثنى عن الحروق التى أصابته فى الرياض .. والعملية التى أجريت له فى بيروت بعد الحروق بسنتين .. وهو لم يَتَخَطَّ الرابعة أو الخامسة عشرة .

أما الثانى فإنه طالب من لبنان ، وأصابه عيار نارى فى ظهره عندما كان مع بعض الطلاب يتظاهرون على باب الجامعة ضد البلاء النازل من فرنسا بشمال أفريقيا .. ولعله هو الوحيد الذى عاش ونجا بين من قضت عليهم طلقات البوليس من الطلاب .. ثم جاءوا به إلى المستشفى مغشيا عليه ، وأخرجوا الرصاصة من ظهره ، ثم لم يعد حيًّا فيه إلا نصفه الأعلى فقط .. ولكنه انسجم فى هذه الأثناء مع ممرضة الليل فى حديث طويل بالانجليزية .!

وكان هادىء الملامح وهو يتحدث عن قصته ، ويبدو عليه أنه مطمئن للأمر الواقع .. وعندما سألته عن الأمل فى شفاء نصفه الأدنى ، قال ، وهو ينفخ الرماد عن سيجارته :

ـــ يمكن .. مع الزمن .

ولم يَبْدُ عليه أنه مهتم بالزمن وبالمستقبل .. وعجبت وأنا أتأمل استسلامه للأمر الواقع ، ثم لم يقل اعجابى به بعد أن توثقت العلاقات بيننا وعرفت من أمره الكثير .؟!

وهكذا يمضي الزمن في المستشفى .

أقلق .. بل أشعر بأن جسمى يرتفع فوق السرير بمعدل نسبة القلق .. ثم أتذكر تعاليم ديل كارنيجى ومن ضمنها :

أن أنسى الماضى .

وأن يكون المستقبل بعيداً عن حسابى .

والحاضر وحده هو الذى أعيش فيه .

وأمدُّ لسانى فى وجه هذه التعاليم وأنا أتصور كارنيجى فى المستشفى .. والشمس تشرق وتغرب حواليه... والبحر .. والهواء .. والناس .. والصدور والسيقان العارية .. والصخب فى بيروت .. والشِّعر فى لبنان .. كل شيء فى مجراه الطبيعى .. وكأن السعادة ترفرف على رؤوس الجميع .. وفى هذه الأثناء يتأمل كارنيجى ذراعه .. وينتظر العملية .. وينتظرها أحبابه على القرب والبعد .. أفتراه يدع القلق ثم يبدأ الحياة فى المستشفى .. فى مثل هذه الحالة ؟

ليته يفعل .. ولا ينتصر القلق .

ولكنه انتصر .. واضطربت أفكارى .. وهى تتجه إلى الله .



يـــا .. الله ..

قلـــت :

يارب .. هذا ذراعى .. تدرى أنه مكسور .. وأنت وحدك الذى قدَّرت خلْقه .. وكسْره .. كما قدَّرت كل تاريخى وتاريخ من خلقت ، فلماذا وضعت الألم فى تاريخنا وتاريخ بعضنا على الأخص .؟ أنت أنت الله .. ما فى ذلك شك ولاريب عندى .. أنت فى كل زمان ومكان .. عرفتك فى نفسى وفى مخلوقاتك .. لم يسعنى أن أفهم بحال من الأحوال أن الدنيا بكل هذا الوجود العجيب فيها قد أوجدَتْ نفسَها بنفسِها .. لابد أن مِنْ وراءها إلٰهاً هو أنت يا الله .

ولكن لماذا ألّقى أنا وبعض مخلوقاتك عناء وآلاماً فى تاريخنا .. ونحن قد أوجدتنا أنت فيه .. يا الله !؟

المصائب بما كسبت أيدينا ، ولكن رحمتك وسعت كل شىء .. إن آلامنا قد تكون أقل كثيرا مما نستحق فى ميزان العدل والحساب ، ولكن ألسنا جديرين دائماً بالرحمة لأنه لم تكن لنا فى وجودنا حيلة !؟

وأسمع صراخ الأمهات اللواتى يقدِّمن مخلوقات جديدة فى جوف الليل .. يصرخْن ويقاسين ويتعذبن كثيرا .. وأنت وحدك القادر على أن تهوِّن عليهن .. حتى يلدن .. ثم .. ثم قد لا يتورعن عن إنتاج مخلوقات جديدة ، لأنك تريد ذلك وقد كتبته .. يا الله ؟

وأنا فى ماضىَّ آلام كثيرة ، ولا أنكر عدالتك فيها .. ولكننى أطمع فى رحمتك ، ولهذا رجوت أن تضع حداً للألم فى حياتى بعد الماضى ، ولكن ذراعى الأيمن تكسر ، وما أزال أسمع صرير العظام كلما تحَركت وسأظل أسمعه إلى أن تبرأ الجراح .. هذه الجراح التى انبعثْ منها رائحة جيفة هل كانت لأن الطبيب أخطأ ؟ أو لأن خطأ الطبيب إنما هو إصابة القدر ؟ ومتى تطيب هذه الجراح ، وهى ما تزال حمراء تقطر دما .. بينها وبين أن يكسوها الجلد مالا أدريه أنا ، ولا الممرضة التى تبللها بالماء وتضع القربة الساخنة تحتها ..؟ وأنتظر وأظل على أعصابى فى انتظار إصلاح وتجبير كسورى ، فمتى سيكون ؟ وهل سيكون فلا أخسر ذراعى الأيمن ؟

أنت وحدك القادر على أن تُنبت الجلد فى ذراعى فأستعيده فى غمضة عين .. وبدون عملية .. إذا شئت .. يا الله .

ولكن الزمن يمضى ثقيلا فى الليل والنهار .. كالدنيا التى لاتزال تمضى على الخير والشر وبكل شىء على مايرام أو لايرام .. بما فى ذلك الكوارث والآلام .

وتتخبط أفكارى .. وأحسبها تضل فى معانى العدل والرحمة ، وأحس أننى فى حاجة إلى من ينقذنى من الظلام والتخبط .. وأفكر فى الكتب أو فى كتاب معين .. ثم أغمض عينىَّ .. وأتأمل القرآن .. فيتسرب الضوء إلى نفسى وأفكارى ، وأشعر بأن الألم فى الحياة ضرورى .. وإلا استحالت إلى قصة باردة .. وكيف يمكن أن توجد حياة كهذه التى نعرف مظاهرها — بدون آلام ؟ وتخيلت قصة مسرحية أو غير مسرحية يعيش كل أبطالها بدون آلام .

أين يعيشون أولا ؟ ثم كيف تجرى حياتهم فى القصة باستمرار بدون آلام ؟ ثم كيف تنتهى القصة وحياة الأبطال فيها بدون آلام ؟ وعرفت أنه يتعذر علىَّ بل وعلى كل كاتب فى الدنيا إملاء قصة كالتى تخيلتها .. بل لعل

تخيلها متعذر .. وهى مع هذا قصة محدودة الجوّ والحركة والأبطال .. فكيف بالحياة وبقصة الحياة فى الدنيا ؟ أى خيال هذا الذى يسعه أن يتخيل الحياة فى الدنيا بدون آلام ؟ وإذا كانت الآلام ضرورية فلابد أن تتلوّن وأن تتجدَّد ، ولابد من توزيعها على الأحياء برأى خالق الحياة لابرأيهم ، فإنهم لم يكن لهم فى وجودهم رأى من قبل .

إنهم فى القصة يتحركون ويمثلون أدوارهم .. إلى أن ينصرفوا . أبطال القصة لا يناقشون المؤلف .. لأنهم من عمله ، فما يتطاول وجودهم إلى وجوده لتكون مناقشته فى الإمكان .

واستراحت أفكارى .. إلى الله .



العمليـة الأولى

أصبح النوم متعذراً علىّ فى الليل ، وفى النهار لا أنام بطبيعة الحال وعلَّلت ذلك بالراحة التى أتمتَّع بها منذ دخلت المستشفى ، لأدفع عن نفسى تهمة القلق .. وانشغال أفكارى بل وعواطفى أحيانا .

واختلط الليل والنهار فى إحساسى وفى تصرفاتى اذ أنام إن تيسر النوم أو الإغماء فى أى وقت كان ، وأقرأ كذلك إن تيسر ما أقرأ .. وأفكر باستمرار .. وأعيش فيما حوالىّ .. وأنتظر العملية .. وأتمثل شعور المحكوم عليهم بالإعدام ، قبل أن يتحدد موعد التنفيذ .

الزمن الثقيل يمضى بِبُطْء شديد ، وقد تَعَبَّأً إحساسى أشد تعبئة لاستقبال يوم العملية .. أو التنفيذ .

وخرج من المستشفى كثيرون دخلوه بعدى .. حتى التاجر السورى المقيم فى الكويت .. نزيل الغرفة المقابلة .. خرج .. وكنت أتوقع خروجى قبله .. خرج وهو يحمد الله على السلامة ، لأن موضع العملية قد التأم فى سلسلة ظهره ، وإن كان قد دخل الغرفة على ساقين وَعُكَّاز ، فخرج منها على أربع عجلات .. ولكنه واثق من كلام الطبيب الأمريكانى الذى أجرى العملية .. وواثق أولا وأخيرا ـــ من الله .

وجاء بعده نزيل آخر .. وحالاً أخذوه للعملية فى اليوم الثانى .. وأخذت ـــ وأنا أنظر إلى حاله بعد العملية ـــ أذكر كلام الأستاذ القنديل وآلامه بعد عملية البواسير التى أجريت له فى نفس المستشفى .. وقصة

القنديل تشبه قصتى فى أنها ابتدأت فى مكة بقلم الدكتور عمر جلال .. ثم انتهت فى مستشفيات بيروت والقاهرة .!

وتذمَّرت من الانتظار .. ومن الدكتور الذى يدخل عندى صباح كل يوم ومساءه ، ويؤكد أن العملية فى الأسبوع القادم ، وقد دخلت فى الأسبوع الثالث ، أو تداخلنا ـــ الأسبوع وأنا ـــ فى بعضنا !

وبدأت أفكر فى الخروج من المستشفى إلى حيث لاأدرى أو إلى حيث ألقت ـــ كما يقال ـــ بعد أن ضقت ذرعاً بالانتظار لولا أن ملامح الدكتور كانت تطرد الشك وتضع بدله الثقة فى نفسى ، وكنت أفكر فى كلام كثير أقوله له إذا جاء اليوم ، بل وفى الحالة العصبية التى ينبغى أن تصاحب كلامى ـــ عندما دخل وتأمل ذراعى طويلا ، وقال بهدوء وبنفس الملامح التى توحى بالثقة :

الآن لابد من عملية جراحية قبل عملية تجبير الكسور ، لتطعيم الجراح فى باطن الذراع بجلدٍ من هنا ـــ وأشار إلى الفخذ ـــ وإلا فسيمضى وقت كبير إلى أن تبرأ الجراح ، ونتمكن من إجراء العملية الثانية .

قلت : ألَا يمكن تجبير الكسور بدون عملية ؟

قال : فى مثل حالة ذراعك مستحيل .. ولكن لماذا تخشاها .. إنها بسيطة .

قلت : ومتى تكون هذه العملية الأولى ؟

قال : قريبا .. وانصرف قبل أن يحدد الموعد .. ثم حدده فى زيارة العصر .. بيوم الأربعاء .. وكنا فى يوم الإثنين .

وطارت أفكارى إلى يوم التنفيذ .. وإلى العمليات الثلاث التى ارتبطت بها مع الدكتور فى عملية واحدة .

الأولى فى الفخذ .. والثانية فى باطن ذراعى الأيمن .. لتطعيمه بما يؤخذ من الفخذ .. والثالثة .. فى « ناصور » مرافق لم أكن قد أعرته أهمية من قبل .

وفكرت فى أن أعدل عن الأخيرة وأنا أتأمل حالة المريض الذى كان فى الغرفة المقابلة بعد عملية البواسير ، وأتذكر كلام القنديل عنها .

ثم كانت ليلة الثلاثاء ، ليلة عامرة بالصحو والتفكير فى يوم العملية .. يوم الأربعاء .. بعد نحو ست وثلاثين ساعة .

حتى أشرق صباح الثلاثاء ، وخيل إلىّ أنه يوم جميل وأن الحياة كلها جميلة برغم الآلام فيها .

وهذه لبنان ما أحلاها .. أحببتها كثيراً فى العام الماضى .. ولكنى أحببت الحياة فيها .. لا الموت ، فأنا لا أحب أن أموت .. الآن .. وفى غير الأرض التى أحب أن أموت فيها .

وتصورت الموت وكأنه قد تقرر نهائياً مع العملية .

وبدت الممرضة نشيطة فى ذلك اليوم ، وعلى وجهها علامات الاهتمام والانشغال بتحضير مريضها للعملية .

فجاءت الىَّ بالحلاق ، ثم أخذت من دمى للتحليل ، ثم أخذتنى للأشعة ، ثم استمرت تهيئنى للعملية إلى أن انصرفت فى المساء ، وهى تلقى على زميلتها عدة دروس تتعلق باستمرار تهيئتى ليوم التنفيذ .

وبدأت الأفكار السوداء تنقشع عن خواطرى بالتدريج كلما اقترب موعد العملية .. فقد تذكرت العملية التى أجريت لى فى مستشفى الزاهر بمكة المكرمة ، ولم أمت في أثنائها إن كان ولابد من الموت في إحدى العمليتين . !

واستمر تحضيرى للعملية ليلاً .. ولأول مرة أنام نوما عميقا إلى ما بعد الفجر .

وبدأت أناجى الله فى ضميرى وعلى لسانى ، وأتمثل الأرض والرحاب التى أحبُّ أن أحيا وأموت فيها .. والممرضة فى هذه الأثناء تهيئنى للعملية عَلَى السرير ، فألبستنى ثياب التنفيذ .. وأخذت تتطلع إلى الساعة باستمرار وهي تخرج وتدخل .. وتأخذ مفاتيح الحقيبة لتحفظها أثناء العملية ، ثم جاءت إلىَّ بالحلاق ثانيا .. وظهر أنها استعجلتنى فى الصعود بسريرى إلى غرفة العمليات بعد أن حقنتنى بالمورفين ، لأن الغرفة التى ستجرى بها العملية مشغولة .

وأخذ تأثير حقنة المورفين يتحول إلى ثقل فى جفونى لأنام .. غير أنّنى صحوت وأنا أتأمل السرر التى كانت مرصوصة معى فى صالون غرف العمليات ، وأتساءل عن الذين كانوا عليها .. أين هم فى تلك الغرف ؟

وأتأمل الحركة المستمرة ، من الممرضات .. والأطباء .. والمساعدين .. فى اللباس الأبيض .. والكمامات فوق الجميع .

وأدرت وجهى إلى الشمال ، فرأيت الغرفة التى سوف أتمدد فيها على سرير العملية .

وطار عنى تأثير المورفين وأنا أنظر إلى المريض المسجى فوق السرير وطبيب البنج عند رأسه .. وحواليه .. وفى صدره أيادى الأطباء ، والممرضات .. والمقصات .. والسكاكين .. والمريض فى أحلى منامه .. إلى أن أخذونى إلى غرفة البنج .

وبدأت تثقل أطرافى ورأسى من تأثير البنج الأول .. وتمثلت الموت هيناً ليناً كحركة البنج ، ثم لم يعد يخيفنى كما كان بالأمس .. حتى صحوت فى غرفة العملية على حركة ظننت أنها لاختبار أثر البنج فى كيانى ، وفتحت

عينى لأتأمل ماحولى .. ولاح لى شبح الممرضة خلف نافذة الباب .. كان وجهها يضحك وكأنها تشجعنى ، ولكننى أدرت وجهى .. وضحك الطبيب من كلمة قلتها .. وأستغفر الله .

ثم وضع البنج فى ذراعى .. ثم .. ثم لم أنتبه إلا وأنا فى غرفتى على السرير .



بعد العملية

ذهب البنج ، وبقى بعض أثره فى أعصابى .. وقالت الممرضة : إننى كنت أُغنِّى عندما صحوت من تأثير البنج فى الغرفة التى ينزل إليها المريض بعد العملية ، ويظل تحت المراقبة .. إلى أن يرجع لغرفته على السرير .

وتأملت نفسى ، فأحسست الأربطة واللفائف فى أكثر من مكان واحد فى جسمى .

ذراعى اليمين على لوح من الخشب والشاش الأبيض .. وفخذى الأيسر .. ومكان الناصور ولا أدرى عن الذى فيه بالضبط .

ولم أشعر بآلام كثيرة .. فحمدت الله فى قلبى وعلى لسانى وأنا أتذكر خطاياى ، واغرورقت عيناى بدموع الفرح والسعادة ، لأننى قطعت المرحلة الأولى فى المستشفى بدون آلام كثيرة ، بل كأننى لم أبرح الغرفة .. إلى العمليات .

وبدأت أضحك وأداعب الممرضة عندما شَخَطَتْ فى وجهى .. فأفْرغْت فى وجهها بعض ما فى أعصابى ، مع البقية الباقية من سكرة البنج .!

وظللت متمدداً على السرير ، أتناول عصير الليمون والماء فقط .

ورفعت ظهرى بنشاط لأبدو طبيعياً كالمعتاد عندما جاء الطبيب لزيارتى فى المساء .. وبدا عليه الارتياح لشجاعتى ، وأنا أكتم بين شفتىَّ أول سؤال عن موعد العملية الثانية !؟

وظللت يومين لا أبرح السرير متمدداً عليه باستمرار .. أشرب بعض السوائل فقط .. وعندما قدّموا إلىّ مرق اللحم فى اليوم الثالث ، تمنيت أن أمضغ المرقة .. وخيل إلىّ حينئذ أننى عرفت معنى الجوع .. ومعنى الرذيلة بعد الجوع !

واستعدت قدرتى على الحركة بالتدريج .

وكنت قد فهمت — فى الغالب من الممرضة — أن قشرة الجلد تنبت على الجراح وتتماسك فى أقل من أسبوع .. ولكن نصف أسبوع مضى ، وأنا لا أرى من ذراعى شيئاً تحت الشاش وعلى اللوح الخشب .. وأخذت أسأل طبيب الليل المناوب وغيره عن الحقيقة ، فلا أفهم سوى أن موعد العملية الثانية قريب ، وربما كان فى الأسبوع القادم .. أما الطبيبة التى كشفت بالأشعة عن ذراعى يوم دخولى المستشفى ، فقد جعلتنى أتفاءل كثيراً بأننى ربما خرجت فى الأسبوع القادم من المستشفى كليًّا بعد العملية الثانية !

وبدأ الزمن يمضى كالمعتاد .. أقرأ .. وأفكر ، وأتحرك فى دنيا الغرفة ، وأسهر ، وأنام إن أمكن ، وأعيش فيما حوالىَّ ، حتى شممت رائحة القهوة التى أحبها فى بلادى ، كانت تنبعث من الغرفة الثانية المقابلة ، وقد لفت نظرى نزيلها الجديد ، وخيل إلىّ أنه من بادية نجد أو من بادية الحجاز ، فقد كان عريض المنكبين ، شامخ القامة ، على وجهه شىء من ملامح الفروسية والاعتداد ، وهو يدخل الغرفة بثياب الصحراء ونعال الصحراء .. ولم أتأمله كثيراً كما تأملته الآن بعد رائحة القهوة ، وأخذت تحدثنى عنه الممرضة وعن مرضاها السابقين من جزيرة العرب ، ثم لم أفهم منها قصة الشيخ محمد ، كما فهمتها منه هو بعد أن تعارفنا ، وكانت القهوة بداية التعارف ، أو الحافز إليه من جانبى !

وتزاورنا .. وأنا لا أدرى إن كان هو النزيل الثالث أو الرابع فى نفس الغرفة بعد انتقالى إلى الدرجة الأولى .

وحدثنى عن ماضيه فى هذا المستشفى ، وعن العمليات التى أجريت له فيه بعد انكسار ساقه اليمنى وذراعه اليمين فى « قَطَرْ » فى حادث سيارة .. وعما كابده حتى حملته الطائرة إلى بيروت .

كان هذا فى العام الماضى .

وقد جاء الآن لعمليات أخرى يخرج بها المسامير التى تربط عظامه تحت الجلد فى الذراع والساق .. وتذكرت مستقبل ذراعى ومسامير الجلد فيه ، وأغمضت عينىَّ وأنا أتصور المستشفى لو عدت مرة أخرى إليه .. لا سمح الله .

وتوثَّقَتْ بيننا روابط العروبة .. والقهوة .. نتبادلها من الغرفة إلى الغرفة ، وأنا الجانب المستهلك دائما . !

وكنت أُفضى إليه فى هذه الأثناء بمخاوفى .. على الأخص من طول الإقامة فى المستشفى ؛ فكان ينصحنى بالصبر قياساً على ماضيه ، ثم يؤيد مخاوفى فى نفس الوقت وهو يرسل أصابعه فى شعر لحيته ، ويتوكأ على عكاز باليد الأخرى بعد أن أخرجُوا المسامير من ساقه .. وكان يتمنى إخراج التى فى ذراعه أيضاً .. ولكن الطبيب قال له : بعد عام آخر .

وجزعت لأنه سيخرج من المستشفى .. وأظل أنا .. وهذا الشعور اللئيم كان يساورنى كثيرا إذا خرج أى مريض إلى النور خارج المستشفى .

وتذكرت القهوة ، فلم يخرج إلا بعد أن تعلمت منه كيف يصنعها فى المستشفى .

وظللت أنتظر وأتقلب على جمر الانتظار .

وَخَلَت الغرفة التى أمامى فى هذه الأثناء ، بعد أن مَلِلْتُ عشرة مريضها .. كان هو وأهله يسألوننى دائماً أن أقفل نوافذ غرفتى ، لأنه لا يطيق الهوَاء البارد إذا هبَّ فى الليل .. قلت : ولماذا لا يقفل بابه ؟ ولم أفهم الجواب على ذلك .. ولكننى فهمت معنى « النعناع » فى بعض كلماتنا البلدية اذا قيلت وذكر « النعناع » فيها وصفاً لمزاج مُدَلَّل رقيق !

وجاء بعد « النعناع » نزيلٌ آخر عرفت أنه من بغداد .. وتردَّد كثيرا قبل أن يدخل إلىّ فى المساء .

وخيل إلىَّ أننى أفكر باهتمام فى كبدى ورئتىَّ ، وهو يحدثنى عن أكياس من الدود فى كبده ورئتيه ، وأن إصابته بها هي التى جاءت به إلى بيروت .

قلت : ومن سيخرجها ؟ قال : الدكتور ج . د . جيان . وهو نفس جزارى فى العملية أو العمليات الأولى ، وعملية المستقبل .

ووصف أكياس الدود وقصة تولدها من الخضار .. وتلوثها فى مزارعها من الكلاب بشكل أو بآخر ، ثم حيرة الأطباء فى علاجه من قبل ، حتى فحصه طبيب الملك فى العراق ، وكان الطبيب انجليزياً ، وكان هو موظفا فى شركة الزيت .. واتصلت الشركة ببيروت ، وحدثت الدكتور ج . د . جيان عن مريضها بالتليفون ، ثم أرسلته .. وغداً ستجرى العملية الأولى فى إحدى الرئتين ، والثانية بعد الأولى ، والكبد بعد الجميع .

وبدا عليه انه كمن يستوضحنى عن البنج ، والعملية ، وقلت كل ما فى وسعى ليطمئن ، وأنا أبلع ريقى بصعوبة كلما تصورت أكياس الدود ، ثم أحمد الله ، وأتذكر القاعدة التى كنت ناقشتها من قبل ، فقد شعرت بهوان كارثتى فى الذراع .

كان اليوم هو الجمعة الثانية بعد ترقيع الذراع ، وهو محجوب عنى تحت اللفائف .. وتصورت أن المستشفى يخدعنى ، فأخدع الغائبين عنى ، وأظل أنا وهم فى الانتظار ، وفكرت بجد فى الانتقال ولو إلى مستشفى الزاهر .!

وجاء الطبيب بعد الظهر ليكشف عن ذراعى .. وكان معه بعض مساعديه ، وكنت أتعقب الأنامل التى تزيح الشاش عن يدى بفارغ الصبر .. حتى بانت الجراح وهى ماتزال حمراء ، وجلدة الفخذ فوقها أرق من إيمان المنافقين .. أو من قبلاتهم على الأيدى .. وانصرف بعد لف الذراع ثانياً ، وأنا لم أقل له بعد شيئا مما عندى ، فأخذت أتأهب لجولته بعد العصر .. ولكنه ابتدأنى بأن العملية فى الأسبوع القادم .. وظننت أنه يرخى أعصابى بالانتظار كالمعتاد .

ثم انشغلت بالانتقال إلى غرفة أخرى فى نهاية الممر بعد أن خلت من مريضها وعواده ، وكانوا يزوروننى ، ونتبادل العواطف والاشجان مذ كانوا من فلسطين ويقيمون فى بلادى .. وقد تفضل المريض بزيارتى للوداع وهو يحتضن بيديه موضع العملية فى أسفل البطن ، وَيُمنِّينِى بالزيارة إذا خرج من المستشفى .. قلت واليأس يغالبنى وأنا أيضاً سأخرج فى الأسبوع القادم .. ثم لم أخرج وانما انتقلت إلى غرفته هو ، وذهبتْ إلى غير رجعة ممرضة النهار ، بعد أن ألحَّت إحدى الرئيسات فى طلبها لمريض آخر ، وتذكرت أُفكارى .. وعواطفى .. وسهرى .. ومتاعبى .. ثم أغريتها بالإنسانية وبالمعنويات ، وهى تتذمر لأن المستشفى يدخرها للمعضلات دائما .. وفارقتُ بعدها غرفتى إلى الغرفة الجديدة على اليمين فى آخر الممر ، ومعى ممرضة الليل فى النهار فقط .. وأصحو وأنام فى الليل مع أفكارى وحدى بعد أن يرتب منامى ممرض أو ممرضة من المستشفى ، ثم لم تزرنى ممرضة النهار (القلب الحنون) إلاَّ لتأخذ الكأس الملساء التى كانت قد تفضلت بإحضارها اليّ من دارها لأشرب فيها الشاي !

العملية الثانية

انقطع اتصالى بحركة المرور فى الغرفة الجديدة ، فلم أعد أشاهد إلا من يقصدنى ، أو يقصد الغرفة المقابلة ، أو يقصد النافذة فى آخر الممر .

ولكننى اتصلت بالعالم الخارجى من نوافذ الغرفة .. بالشمس والقمر .. والهواء ، وبالحدائق .. وبالعمارات .. والرائحين والغاديات وبالشارع أيضاً ، لأن مسكنى الجديد يتمتع بنافذتين يمتد النظر منهما إلى الأفق وإلى حيث أشعر بأننى لم أعد سجين المستشفى كما كنت فى الغرفة السابقة ، وقررت أن أنظم حياتى على أساس جديد عندما تلقيت إخطار الدكتور بالعملية المرتقبة ، وبأن موعدها هو يوم الأربعاء وكنا فى يوم الثلاثاء .. فى اليوم الثالث عشر بعد العملية أو العمليات الأولى .

وكنت عندما كان يكشف الطبيب عن ذراعى ويغير اللفائف ــ أرى الجراح وعليها جلدة الفخذ فأتشاءم .. ولكننى كفرت بتشاؤمى ، وآمنت بالله .. ثم بالطبيب .. وانتظرت يوم الأربعاء .

وأخذونى إلى العملية الخطيرة بعد السابعة صباحا .. ولم أَعُدْ منها إلا حوالى الساعة الثانية عشرة .

وعندما صحوت بعد البنج كنت أتألم ، وأشعر بما يشبه الطرق العنيف فى ذراعى الأيمن .. وكانت يسراي تتألم أيضاً ، لأننى كنت أتناول الإفطار .. والغذاء .. بالفيتامينات أو بمايسمى « الجلوكوز » ــ عن طريقها .. وفى المساء حدثنى الدكتور جـ. دى جيان . عن العملية وعن صعوبتها وعما فعله بإجمال .

قلت : هل سيعود ذراعى كما كان ؟

قال : لا .. ولكن أحسن مما كان ـــ يقصد بعد الكسر ! ـــ وطويت الآلام فى أعصابى .. وارتفعت حرارتى فى الليل إلى ٣٩ درجة .. واستمرت .. ومضى اليوم الأول والثانى .. وجاء الطبيب الذى عرفت من قبل أنه من بلادى أصلا ، وإن كان هو فصلاً من لبنان .. وأزاح قالب الجبس عن ذراعى ثم الأربطة .. وهالنى ما شممت .. ورأيت .

وبدأ الزمن يمضى ، وأشكو إلى الله بثى وأحزانى .. وتشتد خلجات اليأس فى ضميرى ، فأسأل الله ألا يتركنى حيًّا بدون ذراع .

وأضع نفسى على السرير بمعونة الآخرين ، ثم أتخيل الوضع المناسب لذراعى فى قالب الجبس الجديد .

ويتبلل غطاء السرير وغطائى فوقه من العرق ، فأضغط الجرس .. ثم تنخفض حرارتى قليلا إذا تنفس الصبح .

وأتناول الفطور بعد أن تحضر الممرضة فى السابعة .

وَتُعَلِّق ذراعى حول رقبتى بعد أن تغسلنى على السرير كالمعتاد ، وأنا .. فى هذه الأثناء .. أستغفر الله .!

وأتجول فى المستشفى أحياناً .. فأزور الطالب اللبنانى .. ونتحرك معاً إذا كان متهيئاً للحركة على عجلاته ـــ إما إلى أعلى المستشفى لنتأمل البحر .. والشمس .. والحياة .. وهى تجرى حوالينا فى بيروت ، وكأنها قد خلت من الآلام .. وكأننا لَسْنا فى المستشفى .!؟

أو ننزل إلى حديقة المستشفى ، وقد أُعِينُه بيسراى أو بجسمى كله ، ليصعد المرتفعات فى الحديقة على العجلات .

وأجلس أو أقف وراء السور فى الحديقة .. وأضع ذراعى فوق ركبتى ، وأتخيل المشنقة .. وأنا أتحسس الآلام حول عنقى بعد شنق الذراع .

وأتأمل الدنيا وراء السور .

ما ألذ صوت الترام .. كالموسيقى فى أعصابى .. وأتصور نفسى بين ركاب الترام .. والمشاة .. حتى ولو كنت فى سن هذه التى تمشى على الرَّصيف بوقار الثمانين !

ثم قد أزور بعض الناس فى أقسام المستشفى .. وكلهم من بلادى .

ثم أرجع إلى غرفتى قبل الظهر ، وتلفُّنى الممرضة فى الأغطية ، لأن الحرارة قد ارتفعت إلى أسنانى فى شكل « طقطوقة » .

ثم أكشف الغطاء لأصافح باليسرى يمين زائر كريم ، وأتعطَّش إلى الأصدقاء الزائرين بعد أن همدت حركة الصيف فى لبنان ، وانتعشت حركة المعرض الدولى فى دمشق .. ثم يمضى الزائر وقد لا يعود .

وأتناول الغذاء كما لو كنت أتناول البنسلين .

ثم ألعب « الدُّومينه » والبطانية على جسمى أحيانا .، وفى ضميرى شعور عميق بالشكر لمن بدأنى بالمعرفة ، والزيارة اليومية .. وبالدُّومينة لنقطع بها الوقت بعد أن يحدثنى عن آلامه وآلام الآخرين .. من بلادى .. وكلهم للعلاج فى أقسام المستشفى .

وبعد العصر أنتظر الدكتور ــ الحجازى سابقا ــ ليقلب ذراعى بين يديه وهو يطهر الجراحات ، ثم يردها مع الذراع فى قالب الجبس .. ثم لا أعرف عن الجراحات إلا أنها بدأت تلتئم ، وإلا أن الذى يتحرك هو أصابعى فقط بعد العملية الخطيرة .. وأتأمل الورم فى ذراعى .. ومستقبل

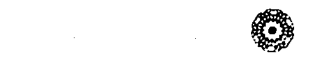
ذراعى .. ثم أتفاءل كما تتفاءل الممرضة إذا سألتها عن درجة حرارتى المرتفعة .

ثم يُقبل المساء ، فأتناول العشاء والبنسلين ، وأتأبط ذراعى إلى حديقة المستشفى لشم الهواء .

وذكرنى جو الحديقة بجو الغرام ، فعلى المقاعد ، وفى طرقات الحديقة ، أطباء .. وممرضات ــ ولكن فى غير ثياب التمريض ! ــ وقصص حب ، ونجوى .. وأغنية جافة يترنم بها طبيب مدنف .. و .. و .. ــ إلى أن أعود وأتمدد على السرير .

ثم أندمج فى سهرة طويلة مع الأصدقاء ممن وحَّدت بيننا الآلام فى المستشفى ، ولعبة (الضومينة) أو (الدومينة) التى كانت تستغرقنا أو نقتل بها الزمن على حد تعبير مؤسف كهذا التعبير .. وترتفع أصواتنا إذا طاب السمر ، حتى تجيء الرئيسة متلطفة لإخطارنا بأن الوقت ليل وأي ليل .. وهى تبتسم تشجيعاً للنادى الجديد الذى بدأ يتكوَّن فى غرفتى .. ثم ترتب شؤونى على السرير بعد التاسعة ممرضة المستشفى ، لأنام .. وأنام أحيانا قبيل الفجر ، بعد أن أقرأ ، ثم أطفيء السراج .

وأتحرك كثيراً حتى يستقر وضع ذراعى ووضعى كله على السرير .. وحينئذ تتيقظ أفكارى ، وترتفع حرارتى ، وأشعر ببؤس شديد وأنا أناجى الله .



خرجت من المستشفى

طردت القلق من أفكارى ، وكونت عدة علاقات فى المستشفى ، وقرأت .. حتى الروايات البوليسية .. وتقلب علىّ جمع وافرٌ من المرضى .. وحفظت الغرف بالأرقام .

وعرفت قصصاً وآلاما كثيرة .

العراقى الذى كان يرتفع صوته بالألم فى جوف الليل من أول الممر ــ كان يتغذَّى من عروقه بالدم فقط .. وبين شفتيه آهات سبعين سنة .. وفى ماضيه بضع عمليات أسمع تفاصيلها من لسان ولده الذى هو دون الخمسين .

ثم قصة القصص .. قصة الرأس التى رأيتها مراراً وأنا أشم الهواء فى حديقة المستشفى .. وكان صاحب الرأس يتنفَّس صناعياً وجسمه فى الجهاز .. إلى أن تتحرك الرئتان أو إحداهما ، فيضعونه على السرير .. ثم يمتد شلل الجسم مرة أخرى إلى الرئتين ، فيضعونه فى الجهاز ليتنفس صناعيا .. ويظل بين الجهاز والسرير فى غرفة واحدة .. وعمره حوالى العشرين .!

كل هذا لم يعد يهمنى أو يقلقنى .. كديل كارنيجى تماما ! ولكننى رغم ذلك كنت أتمنى فراق المستشفى .. ربما لأننى يئست ، فتمنيت أسوأ الفروض ؟ أو لأننى كنت معلقاً بآمال أخرى خارج المستشفى ؟

اليوم هو السبت وهو الحادى عشر بعد العملية الأخيرة .. والثالث والأربعون بعد دخولى المستشفى .

وكان الدكتور جـ.دى جيان يضع يمينه فى يمناى ــ وأنا أرفعها باليسرى ــ ليصافحنى فى الصباح والمساء .. كان يتفاءل بمصافحة يمناى لأتفاءل .

قلت قبل أن يصافحنى يوم السبت :

ــ متى سأخرج من المستشفى ؟

قال : إن حرصى أشد من حرصك لأننى سأكسب زبونا جديدا إذا خرجت .

قلت : هذا صحيح .. ولكن متى سأخرج ؟

قال : سأغير لك الجبس يوم الإثنين .. ونتكلم فى الموضوع .

وصعدت يوم الإثنين إلى غرفة العمليات .. على قدمىَّ فى هذه المرة .. وأزاح اللفائف وَطَهَّر الجراحات ، ثم وضع الذراع فى قالب جديد من الجبس غير الذى كنت أشكو منه .. ثم لم نتكلم فى الموضوع كما قال .. ورجعت إلى غرفتى لأتناول الفطور .. ثم كالمعتاد علَّقت ذراعى لأتجول فى المستشفى .. وعند باب « الأسانسير » لقيت جـ.دى جيان .. وابتسم فى وجهى .. وقال ــ وعلى وجهه نفس الثقة ــ غداً ستخرج من المستشفى .

قلت : وأنا أبتلع ريقى بصعوبة .

غـداً ..؟

قال : نعم .

قلت : لم نأخذ صورةً للذراع بعد العملية الأخيرة .

قال : اليوم فى المساء .

وارتفعتْ حرارتى فى المساء ، فتأجلت الصورة إلى غدٍ ــ الثلاثاء .. وتأملت الصورة غداً ، فلم أفهم شيئا .

كانت أصابعى وحدها هي التى تتحرك .. وكان ذراعى ــ وفوقه الورم .. والجبس تحته ــ محمولا على ذراعى الأيسر .. أو على الصدر والعنق إن مشيت .. أو بجوارى على السرير فى الوضع المناسب .

قلت :

ــ يادكتور .. درجة حرارتى مرتفعة ، فهل أخرج اليوم ؟

قـال :

نعم .. وأضاف أن الحرارة فى طريقها إلى الانخفاض .

وابتسم وهو يودعنى ويوصينى باختيار الطبيب المناسب لتنظيف الجراح فى دمشق .

وبعد كل أيام المستشفى .

والشك واليقين .

والقلق والطمأنينة .

والرجاء واليأس .

لم أصدق أننى خرجت فعلا من المستشفى .. وأن الزمن يتحرك كالمعتاد ــ إلا بعد أن ركبت التاكسى .. إلى ساحة البرج فى بيروت ؟

الطبيب البــارع !

كانت الممرضة قد عرضت ــ بالاضافة إلى رغبتى فيما عرضتْه ــ أن ترافقنى إلى (دمشق) لمساعدتى على المعاناة فى تحركاتى داخل السيارة وخارجها ، مذ كان ذراعى مشدوداً على قالب من الجبس بعد اِحْكَامِ لَفِّهِ بالقطن والشاش قبل مغادرة المستشفى .. وكان عاطلا لا يتحرك الا بمساعدة يدى أو أية يد إضافية إخرى اذا اقتضى الأمر أن أتحرك قياما أو مشيا أو على أي نحو كان .

هذا بالاضافة إلى أن خطيبها فى دمشق !

وارتفقنا سيارة من ساحة (البرج) وكان الوقت ضحى ، وأنا على الجو العاطر الرقيق الذى كنا نجتازه بين الشجر والسحب ورقة النسائم وطرافة ما حوالينا ــ كنت فيما يشبه الدوامة من أعصابى المشدودة لذكرى الحادث ، كُلَّمَا تَلَوَّتْ بنا السيارة بين مرتفعات لبنان ، ولما ترمز اليه الصفحات السابقة من معاناة ..

كنت أغالب شعوراً بالحسرة أو الهزيمة أو الألم أو هو اضطراب نفسى صامت بين الشكر والانكسار .

وتوقفت بنا السيارة لإجراءات الجوازات والجمارك المعتادة عند بوابة الخروج من لبنان ، ثم بوابة دخول سوريا .

ثم أخذنا نجتاز مشارف كانت تَهَشُّ النفس لرؤياها من قبل ، وأنا أجتازها اليوم كاسف البال والنفس ، حتى بلغنا مقر الأهل والعيال فى

دمشق .. وغمرتنى مشاعرهم بعد وداع الممرضة بمزيج من الألم والفرح والسلوان .

وبعد الاستقرار وتبادل العواطف وما تيسر من الشاى والمرطبات ، وبعد معاناة إحساس داخليّ غامض بأن فى قصتى ابتلاء روحيا قد يكشف الله كربه بقراءة صالحة مشروعة ــ طفح هذا على لسانى بدون مقدمات ، فقلت : أرجو أن تلتمسوا رجلاً من الصالحين لقراءةٍ صالحة عليَّ أرجو أن يكتب الله لها القبول .

وسألت فى نفس الوقت أحد الأصدقاء من ذوى الرأى والمعرفة أن يختار بنظره أو بنظر من يعرف طبيبا جراحا بارعا ليعالج ذراعى وجراحاته حسب توصيات الطبيب فى مستشفى الجامعة الأمريكية فى بيروت عند مغادرته كما أسلفت ..

وجاء الرجل الصالح أولاً ، وكان شيخًا وقورًا يملؤ النفس بالثقة والاطمئنان .. وأخذ يقرأ شيئا من الذكر ، والدعاء ، والقرآن اذ يمسح بيديه رأسى وصدرى ، ويواصل قراءته التى استمرت نحو نصف ساعة فى جو ملؤه الخشوع لذكر الله الذى تطمئن به القلوب .

ثم تهيأت ، بمساعدة الآخرين على (اللِّبْس) والحركة ، للخروج فى صحبة بعض الأصدقاء .. وذهبنا إلى عيادة الطبيب الجراح الذى وقع عليه الاختيار ، وقيل إنه أبرع الأطباء الجراحين أو فى مقدمتهم ..

ومكثنا نحو عشرين دقيقة فى الانتظار ، حتى جاء وأخذنى إلى غرفة الكشف بعد أن شرحت له ما كان من تفاصيل أمرى وعملياتى فى مستشفى بيروت .. وأزاح الجبسَ وَبَدَى الذراع من المرفق ومما يليه فى لون الدم تحت اللفائف التى بدا عليها البلل من نفس اللون .. واذا الطبيب الكبير يزمجر قائلاً بلهجته السورية (لُكْ .. لُكْ .. شو هاد أنا ما باحْسِنْ أُحُطّ إيدى فى هيك جراحات) وأعاد لفها ووضع الجبس عليها كما كان ، وقال :

(لازم ترجع لمستشفى الجامعة ، ولنفس الطبيب .. لازم هو بيتحمل المسئولية) إلى آخر ما فضلت روايته بلهجته السورية كما تدفق بها لسانه حينذاك .. وواضح أنه يعنى خطورة الأمر فى ذراعى وفى جراحاته إلى حد فظيع يوجب اليأس .

وأخذت طريقى من العيادة بين من تفضلوا بمرافقتى اليها ، وقد بدى اللون الأصفر على وجوههم وهم ينظرون اليَّ مشفقين وجلين يتخيلون رد الفعل سيئاً وعميقاً فى نفسى لما قاله الطبيب ، وأنا أنقل خطواتى بتؤدة إلى السيارة ، ويدى معلقة كالمعتاد فى رقبتى على الجبس كلما مشيت أو هممت بالقيام !

ولا أدرى كيف كان رد الفعل عكساً لما كان متوقعا ، فقد أحسست شيئا أعمق من الطمأنينة ومن اليقين إن كان هناك ما هو أعمق منهما فى مواجهة شيء كالذى قاله الطبيب الكبير !

وتحركت بنا السيارة .. وقلت لهم : معذرة فإن هذا الذى وقع عليه الاختيار كطبيب بارع ليس بطبيب ، إذ كان المفروض فى الطبيب ولو لم يكن بارعًا أن يكون إنسانا ، فهذا ليس بارعًا منذ فزع لما رآه ، ولو تأمله بعمق ودراية ، وكان على خبرة طبية لعرف أن الطبيب الذى عالجنى فى مستشفى الجامعة لم يكن ليضحِّي بسمعته وسمعة المستشفى إن كان فى حالتى أية خطورة كالتى تصورها .. ثم وعلى افتراض أن فزعه كان فى محله كان حقا عليه أن يتلطف فى مواجهتى ما استطاع ، ثم يشرح لكم وجهة نظره لتروا رأيكم فى مواجهتى بها بعيداً عن الاستفزاز ، والصدمة المتوقعة بعد مواجهتى بمثل ما سمعتموه لولا أن الله قد مَنَّ عليَّ بمقاومته ، فكان تأثيره عندى عكسيا ، وآمنت مذ سمعته بأننى فى الطريق إلى خير مما كنت فيه والحمد لله .

إن هذا ليس إنساناً .. ولا أدري كيف يكون طبيبًا بارعاً من هو غير إنسان ؟ ثم أضفت ونحن نغادر السيارة إلى البيت : من فضلكم التمسوا لعلاج جراحاتي مُمَرِّضاً عريقاً في التمريض وفي معاناة الجراحات بالذات أرجوكم .. ممرضاً فحسب .

ولقد كنت حسب تعليمات الأطباء أحاول دائماً تحريك أصابعي وذراعي داخل الجبس وبدونه ، فكانت أصابعي تتحرك دائماً .. أما الذراع فلم يتحرك قط إلا اليوم .. واليوم بالذات وفي الحال بعد أن عدت من مقابلة الطبيب البارع الكبير ، فقد أخذت مجلسي على السرير ، وحاولت تحريك ذراعي فإذا هو يستجيب ويرتفع في الهواء لأول مرة ، ولم أكد أصدق ما رأيت ، فأقفلت باب الغرفة ، وأخذت وحدي أكرر المحاولة مراراً وكانت تبدو أحسن من التي قبلها في كل مرة .. وحمدت الله وشكرته في أعماقي ، وأنا أتذكر قراءة الرجل الصالح ، وتأثيرها الذي تم سريعاً وطبعًا بإذن الله ، وكان أحسن رد فعل لخيبة الطبيب البارع في العلاج وفي الإنسانيات !

ولأول مرة أمسكت القلم بعد الانقطاع عنه نحو شهرين ، وأخذت أكتب رسالة لأمي ــ يرحمها الله ــ وكنت أدير القلم بصعوبة على الورق وذراعي طبعاً في الجبس ، والغبطة ملؤ نفسي لأنني استطعت أن أعود إلى القلم .. وفتحت باب الغرفة الذي كنت أقفلته ، وناديت من كانوا هناك ليشاركوني الفرح والشكر .. ثم جاء من كانوا صباحاً معي لدى الطبيب البارع برفقة الجراح المطلوب مساء ، ورأوا ما تطور إليه حال الذراع وأسفوا للمقابلة بين هذا التطور وما كان من أمر الطبيب ومقالته من قبل بضع ساعات .

وأمضينا سهرة ممتعة بعد أن قلت للجراح ــ وكان قادماً لتوه من الحج ــ هل تعرف الدكتور (وسميت له الطبيب البارع) قال : أعرفه ،

فذكرت له مقالته بِالسُّورِيِّ كما قالها ، وسألته عما إذا كان في وُسْعِهِ المغامرة طويلاً بعد مثل هذا الكلام من طبيب كبير ؟ قال : اسمح لي بمعاينة الذراع : وأزاح الجبس واللفائف : وتأمل ، ثم قال : ما معناه إن الجراح تبدو مزعجة فعلا ولكن ليس إلى الحد الذي تصوره الدكتور (؟) ثم أضاف : إنه سيسمي ويذكر الله ، ويبذل جهده والباقي على الله .

وأخذ هو يتردد علي آخر النهار ليغير ما على الجراح بعد تنظيفها كل يوم .. كما ظل يتردد الشيخ الصالح ليقرأ عليَّ ما تيسر من التعاويذ المشروعة صباح كل يوم .

وكان الدكتور الذي تولاني بالفحوص والعمليات في بيروت قد أوصاني بمراجعته بعد أن سمح بمغادرة المستشفى ، فذهبت إليه بعد نحو ثلاثة أسابيع من ممارساتي العلاجية ، وحدثته بما كان من أمري مع الطبيب البارع والممرض الذي عالجني بدمشق .. وتأمل ذراعي طويلاً ، ثم قال إن كل شيء على ما يرام ، ونصح بممارسة التدليك وحركات رياضية معينة لدى المختصين في مكان وجودهم .

وهكذا عدت إلى دمشق .. وكانت انفعالاتي في الذهاب والإياب أقرب إلى الاعتدال وإلى المزاج المنسجم مع أجواء الطريق وطراوته ، لا كما كانت يوم غادرتُ المستشفى إلى دمشق .

ثم أمضيت أياماً في نفس الممارسات العلاجية السابقة ، حتى بدى الجفاف على جراحي ، وأزحت الجبس نهائياً عن الذراع ، مع أخذ تحركاتنا معاً أنا وهو بعين المحافظة والاعتبار للتوازن وسلامة الذراع من أى أذى أو انتكاس .

وأخيراً توكلت على الله وشددت رحالي إلى القاهرة !

في جــو النهايــة !

كان أول همي بعد حصولي على السكن المناسب لنا في القاهرة إختيار الطبيب المناسب لمزاولة الأعمال الرياضية التي يستفيد منها ذراعي حسب تعليمات الطبيب في بيروت .. ووجدناه بمساعدة بعض الأصدقاء وبمشاركتهم في الاهتمام ، وكانت عيادته تغص بالمراجعين والمراجعات ، وبعدد من الأجهزة التي يمارس بها مهمة التطبيب الرياضي .. هو وآخرون معه في مقدمتهم ابنه ، كانوا يحاولون انقاذ ما يمكن انقاذه فيمن هو أو هي على مثل حالي من الكسور والإصابات بالتدليك وبمحاولات رياضية بارعة في المساعدة على التحسن والشفاء .. وكنت أمتثل لتعليماتهم في الحركات التي يشيرون بها ويرشدون إليها باللسان وبالأيدي وبالأجهزة ، وأتردد على العيادة في المواعيد المحدودة ، وأنصرف بعد الانخراط في التمارين وأدائها على ما يرام .

وكانت رائحة الثورة فواحة ، وغبارها يعجّ ويملؤ سماء القاهرة .. وكان معنى الحذر واضحاً في الوجوه وعلى ألسنة الناس ، فما يتكلمون إلا بكل تخوف واحتياط ــ كما لو كانوا يتوقعون التجسس أو الجاسوسية دائماً أو العيون والآذان ــ ويحتاطون ضد بعضهم إلى درجة الوسوسة والارتياب !

ولم تكن الحقيقة واضحة بمثل هذا الحذر وفي مثل هذا الجو.. أهي مع الثورة أو ضدها ؟

وكانت أية محاولة لمعرفتها تبوء بالفشل ، إذ تشير الهمهمة أحياناً إلى الإيجابية المتهالكة لصالح الثورة ، بينما تبدو الملامح والنظرات ومن ورائها شيء كالغمز واللمز ضد الثورة .. ربما لأن الجو كان مشبعا بالحذر والإرهاب ، فقد كانت الأجهزة المرئية والإذاعية تبث أيامها على الهواء محاكمات من قبض عليهم من الإخوان المسلمين في محاولة اغتيال الرئيس يوم كان يخطب في المنشية بالأسكندرية ، ثم محاكمات أخرى لزعماء ورؤساء ومسئولين في العهد الملكي الذي أبادته الثورة .. وكان الجو واضح الإرهاب في هذه المحاكمات .

هذا بالإضافة إلى شعور المخافة من الشيوعية التي أخذت طبولها تدق على رؤوس الناس وفي مواجهتهم كيفما اتفق .

وبدت مصر التي عرفتُها من قبل ــ رخية في معايشة أهلها وغير أهلها ــ أقرب إلى الصرامة وإلى العبوس والشدة وعدم توافر المتطلبات إلا بنظام البطاقة أو نظام الطابور .

وفي مثل هذا الجو كنت أتردد على الطبيب وعيادته لتعاطي التمارين الرياضية في مواعيدها .

ولقد كنت أمارسها ذات يوم كالمعتاد عندما قال الطبيب أو مساعده الذي كان يعمل فى ذراعي : الآن يجرى تنفيذ حكم الإعدام في محمود عبد اللطيف وعلى هندي وحسن طلعت من الإخوان المسلمين المتهمين في حادث المنشية في الإسكندرية .. قلت : يرحمهم الله ويرحمنا .

واستقر الحال في ذراعي على ما هو عليه إلى اليوم ، فقد جفت الجراح ، ولم يعد هناك أى داع لوضعها في أضمدة أو لفافات فضلا عن (الجبس) الذى لم أعد أضعها فيه من وقت طويل .

لم يعد ذراعي كما كان من قبل حقاً ، فما أستطيع أن أمدَّه إلا بشيء من الإنحناء عند المرفق الذي مازال يحمل آثار العملية ، وشظية صغيرة من العظام تحت الجلد .. ومازال باطنُ الذراع مَكْسُوّاً بشيء من باطن الفخذ ــ كما ذكرت في موضعه من الصفحات السابقة ــ مما لا أحسه إلا قليلا ، ولكنني أشعر بدبيب الحياة فيه إلى حدٍ ما .

غير أنني أمارس بذراعي كل ما كنت أمارسه قبلا من الحركة والكتابة خاصة ، ومن المهمات التي لابد منه لممارستها .. إلى درجة الضرب والعراك به عند اللزوم !

ثم لا يسعني غير أن أضع جبهتى وجسمى كله ساجداً لله على الأرض ، وبودى أن أتمرغ فى ترابها شكراً لله على ماصار اليه ذراعى بعد اليأس ــ تقريباً ــ منه ، ثم على كل جميل صنعه ويصنعه لى ومعى برغم كل لؤم وجحود متواصل منى .. واستغفر اللّٰه .

وطاب للمريض المسافر أن يغادر القاهرة عائداً لوطنه الغالي بعد فراق طال في معاناةٍ مضت كأي حلم أصحو منه على حلم .

وعلى أي حال من الصحو أو من الأحلام ــ الحمد لله رب العالمين .



خيــال عابــر القــارات

إنها قصة طويلة لَوَتْ عناني في أول محطة كنت أهم بالقفز منها بعيداً عن طحالب النفس والحياة .. تلك التي تطفوا إذا ركد الماء وفاض الشجن ، وَتَطَلَّعَ شيءٌ كالآهات من أعماقي إلى الآفاق !

وأمتطى ـــ عادة ـــ خيالي قبل الطائرة ، ثم أمتطيها في إثره إلى (سنغافورا) كما حصل بالأمس .. أو قبل أربعة أسابيع .. حيث كنت أقفز بخيالي إلى المحيط أو إلى جزر تنام فيه كأحلام لا تنام ، ثم إلى ما بعدها على عابرات المحيط .. إلى آخر ما كان خيالي يسبقنى إليه وأنا حيث أنا في (سنغافورا) أسرع مدينة صنعت تاريخها الحديث !

وكأنما كان في قَدَرِى شيء آخر بعيد عن مطارح الخيال .. ضد خط العبور إلا إلى حيث كنت أو من حيث أتيت !

وتفجَّرتْ بداية القصة في يساري أو الجانب الأيسر مني ـــ على كرهي لليسار واليساريين ـــ وأخذت أَتَلَوَّى على سريري وحواليه بعد منتصف الليل .. وخيالي يدور ويتلوى حولى وحول العالم !

ثم لم يكن بُدٌّ من التماس الطبيب .. وأخذ كالمعتاد يجس النبض ويقيس الحرارة ، ويتحسس منطقة الألم .. ثم يبدو أنه فَضَّل خلاصنا معا أنا وهو من المشكلة باعطائى (ابرة) منومة كما يظهر ، فلم أستيقظ إلا حوالي العاشرة من ضحى اليوم التالي ، وقد اتسعت دائرة الألم فاستغرقنى من الجانب الأيسر إلى ما ظننته رأس المعدة أو أعلاها ، وتماوج الألم فيه

وحواليه .. وتوافد لزيارتي بعض الأصدقاء .. والأطباء .. وأمضيت على هذا النحو أو على هذا المنوال أربعة أيام بلياليها جائعاً لا أكاد أشتهى ، أو لا أستطيع تناول ما أشتهيه إلا الماء وقليلاً من الشاى ، وأطرافي ترتعد برداً من وقت لآخر في هذه الأثناء .

وطاف بي خيال المستشفى .

وَحَسِبْتُ لتَفَقُّد الأهل والولد ، في غير مكان من بلدى وسواه ، ولتصرفاتهم المحتملة ألف حساب ، ثم لم يكن بد من دخول المستشفى — وليكن ما يكون — باسم الحفاظ على الحياة .. بالإضافة إلى الحاح الأصدقاء وفي مقدمتهم القائم بأعمال السفارة هناك .. عبد الرحمن الطعيمي الصديق الحبيب من قديم الزمان .

وَمَسَحْتُ الغرفة ، وصالة الفندق ، بنظرة كالأسف أو كالبلادة ، وأنا ذاهب على مايشبه الرماد من خيال عابر القارات إلى المستشفى .. وأشهد له — على تفاهة شهادتى — بالتفوق ، فلقد أسعفني بالغذاء عاجلاً في عروقي ، ثم بالنذر اليسير في فمي .. ودارت بي دوامة الفحوصات في ضحى اليوم التالي نحو أربع ساعات صعدت بعدها إلى غرفتي حطاماً أو شبه حطام .. وتوالى رنين التليفون أو الهاتف بين كل لحظة وأخرى ممن حسبت لمشاعرهم كل حساب ، بعد أن عرفوا الحقيقة من الفندق ، فكنت أتكلف الجهد وسلامة الصوت والكلام في محادثتهم ما استطعت ، وأذكر معنى الوعكة الطارئة وأزعم لهم أنها هانت الآن بعد دخول المستشفى ، وأننى في الطريق غداً أو بعده إلى مركز الثقل !

وجاءت نتائج الفحوصات آخر اليوم .. ومعها الأطباء ، وقال قائلهم : سنجري بعد غد — الجمعة — فحصاً منظارياً .. ثم بعده بيومين نجري عملية تفتيت حصوات في الكلية اليسرى .

قلت في الحال : هل يتعذر السفر بالطائرة قبل أية عملية كتلك أو هذه ؟ قالوا بعد أن تبادلوا البحث والمشورة : لا .. قلت إذن سأعود وتكرموا باعطائى ما توصلتم إليه .

وذهبت من المستشفى إلى المطار .. وتأخر إقلاع الطائرة السعودية عن موعدها نحو ساعة .. وتناولت شيئاً من وجبة الطعام ، وحاولت أن أمد قدمى ــ طلبا للراحة ــ على ما ظننت أنه يمتد تحت المقعد إلى الأمام كما عرفت ذلك في الدرجة الأولى على خطوط أخرى ليست (السعودية) أقل منها ، فأبدى المضيف معنى الأسف ، فما يمتد المقعد إلا إلى الخلف على نحو لا تتحقق به الراحة لمن ينشدها على الأخص إن كان مريضاً .. وأسفت وأعلن أسفى مضاعفاً لمثل هذا النقص ممن يملك القدرة على التمام[1] .

ومضى الوقت في القراءة وفي مطالعات صحف ملؤها فراغ لا يذكر إذا مسحت بتأملاتي فراغاً كالذي كانت الطائرة تسبح فيه .. ياله من فراغ بين السماء والأرض .. أو هو ليس فراغاً ؟ ونحن .. من نحن فيه ؟ ما اتفهنا .. وما أتفه كل شيء في حساب قدرة الصانع الذي لا يحتاج الإيمان به ــ حقاً ــ لأن نراه !

وحوالي الخامسة بعد عصر يوم الجمعة ١٤٠٦/٥/٢١ (١٩٨٦/١/٣١) كنت في الرياض بين بعض الولد وذوى الرحم .. أكاد أمسك عواطفي من خليط يمزج الفرح بالأحزان !

ثم ذهبت إلى (المستشفى التخصصي) وهو من أحلام (فيصل بن عبد العزيز) يرحمه الله .. وحققته سواعد رجاله ، ومن ورائهم حماسه ودعمه ، في زمن أقل مما توقعه الناس .

---

(١) لقد استدركت (السعودية)هذا النقص فيما بعد والحمد لله .

وكان يبدو لي كالآخرين نموذجياً رائعاً كلما ذهبت لزيارة مريض فيه .

ومضيت إلى مقرئ وقد تفضل به وبكل ما يتبعه من الفحص والعلاج عطف ملكي تُغْدَقُ نظائره كل يوم .. وتوافد طبيب أو أكثر ــ فقد نسيت الآن ــ وكان في المقدمة مدير المستشفى الدكتور فهد العبد الجبار

كانت ملامحه وابتسامته كألفاظه التي أشرقت جميعاً في داخلي بشيء كالراحة والطمأنينة لِلُقْياه .

وبدأت في ضحى اليوم التالي دوامة فحوصات أنستنى أختها التي كانت في (سنغافورا) ولم أكد أستقر على السرير فيما لا يقل عن (سويت) ممتاز في فنادق الدرجة الأولى حتى كان صوت رائدنا الملك الحبيب (فهد بن عبد العزيز) عَبْرَ الهاتف ، ومن سمعي إلى أعماق نفسي ، رصيداً من القوة ضد ما أحسسته كالضعف بعد ما عانيته قبلاً وبعداً ، وضد ما قد يخامر مريضاً مثلي من مشاعر تتذبذب بين السوء والمرارة في مواجهة متاعب الحياة !

ثم تضخم الرصيد وتضاعفت القوة بكلام رقيق عبر الهاتف أيضاً من الرائد الثاني ولي العهد الحبيب (عبد الله بن عبد العزيز) حفظ الله الرائدين ، وسدد خطاهما ووفقهما لكل ما يقوى ويصلح به الكيان .

وأخذ الرصيد يعلو ، والدعم يقوى ــ والله من وراء كل دعم وتأييد ــ بمشاعر الأصدقاء عبر الهاتف الذي لا يكاد يتوقف ، والزيارات التي لا تكاد تنقطع من أمراء هم مع تقديري العميق : مساعد بن عبد الرحمن ــ وهو في مقدمة أهل العلم والفكر والرأى السديد ــ وعبد الله الفيصل ــ وهو من قضيت معه زهرة العمر وشبابه في ديوان نائب الملك سابقاً ، ثم لم ينلنى منه إلا كل عطف وتقدير ــ وسلطان بن

عبد العزيز ـــ ولا أكاد أنسى مزايا شخصيته الآسرة ، ومكارمه وأياديه منذ كنا زملاء في العهد الوزاري القديم وإلى ما شاء الله .. وسلمان بن عبد العزيز ، وما أدراك ما سلمان في دنيا العطف والرعاية وجِدِّ المسئولية ويقظة الشعور بها دائماً .. وأحمد بن عبد العزيز الصموت الفعال في حقل مسئوليته ، وفي مثالية سلوكه وتقواه .. وسطام بن عبد العزيز الذي يلوح وكأنه سلمان .. إنما على نحوٍ أرق !

ولا أكاد أنسى حواراً مع سطامٍ وهو في زيارتي الثانية حول (باقات الزهور) التي كانت تملؤ غرفتي وغرفاً أخرى طيلة النهار والليل .. ثم يجري رصها في الممرات حتى تؤخذ إلى حيث يلقى بها ـــ أو إلى حيث لا أدرى ـــ وكان هو ممن تفضل بشيء منها ، كما تفضل سمو الأمير الحبيب ماجد بن عبد العزيز من (فيينا) بباقة مماثلة ، فقلت لسموّه : إنها ، أى باقات الزهور ، تقليد وافد إلينا من الغرب .. وما جدوى المريض منها ومن تكاليفها الضخمة التي تتراوح بين مئات الريالات وآلافها وهي في طريقها إلى الذبول .. قال (سطام) إنها رمز لمعنىً لطيف .. قلت : فليكن هذا الرمز في شكل هدية أقل تكلفة ، أو أعظم جدوى .. قال : (زى أيه) مثلا ؟ قلت : علبة حلاوة .. زجاجة كولونيا .. زجاجة عطر .. منديلاً طريفاً أو كتاباً أو أى شيء كهذا ، وإذا كان المقصود هو جدوى المريض فلماذا لا يؤدى شيء من قبيل الصدقة لوجه الله باسم دفع البلاء عن المريض .. مع بطاقة فيها إشارة لذلك ولمعنى التمنيات الطيبة ، والتماس القبول من الله ؟ .

قال سطام وأيده الأمير سعود بن فهد ـــ حفظه الله ـــ الذي تفضل معه بزيارتى : هذا ما يحسن التفكير فيه .

وكدت أنسى صوت أميرنا عبد المجيد بن عبد العزيز ـــ الذى وفق الله قائد مسيرتنا في اختياره لطيبة الغراء ـــ وهو يخاطبني منها عبر الهاتف ،

وكنت حريصاً على أن أكون في إستقباله لو لم يكن ما كان وفقه الله وسدد خطاه .

ثم لا أكاد أنسى مالا استطيع احصاءه من زيارات من أذكر ومن لا أذكر من الأصدقاء ، وفي مقدمتهم بعض أصحاب المعالي .. الأصدقاء دائماً وزملاء المهنة سابقاً .. وسواهم من أهل الود والوفا والخلق الكريم .

ويطول الكلام ــ ربما إلى درجة الملل والإملال ــ لو ذكرت الأسماء ــ وعلى احتمال الخطأ والنسيان ، غير أن صوت أخي وصديقي الشاعر الغريد طاهر زمخشري هزنى في أعماقي وهو يتفقدني بالسؤال من جدة وقد كنت أحسبه في (تونس) ولم أسمع صوته من وقت بعيد إلا يوم ألقى ما ألقاه من شعر مؤثر رقيق فى حفل جائزة الدولة التقديرية للأدب ، وقد نالها ككل من نالوها عن جدارة واستحقاق !

لقد كان حقاً عليَّ أن أتفقده أنا بالبحث والسؤال .. حفظه الله .

ثم .. وفي خضم تلك المشاعر والزيارات والهاتفيات عانيت بقية أيامي في المستشفى التخصصي .

تكاملت الفحوصات في اليوم الثاني ، فكانت عملية المنظار في اليوم الثالث .. وأحبس أنفاسي طويلاً وأنا أطوى تفاصيل ما بعدها من ألم ومتاعب في ذلك الخضم الكريم .

ثم كانت عملية تفتيت حصوات الكلية اليسرى في اليوم الرابع .. ولا أكاد أتذكر شيئاً عما قيل لي عنها ، وعن المغطس الذي وضعت فيه ، والجهاز السحرى الذي مارس مهمته ، فقد كنت في غيبوبة « البنج » حتى غدت الحصوات تراباً أسود تساقط لآخر ذرة منه إن شاء الله دون أى أثر أو جراح .

ثم أجريت عملية منظار للمعدة .

ثم أخذت أشعة لما يقال إنه الأوعية الدموية ، وكنت أراقبها على شاشة الجهاز ، والدم في عروقي أحس طفحه وحرارته .. وأدهش لتقدم العلم على هذا النحو ، وإن كنت مؤمناً في قرارة نفسى بأن المرض ما زال أقوى وأكبر من العلم إلى أن يأذن الله ــ ولهذا بحث يطول ــ .

وأدهش أكثر من دهشة كالتي أسلفت لارتفاع مستوى الفحص والعلاج والخدمة على اختلاف مستوياتها وأنواعها وأجهزتها في (المستشفى التخصصي) مما لا يقل به عن أرقى المستشفيات في العالم الأول كما يقال .

ولا أدهش ــ وقد كان أمره كذلك ــ إذا لم يوجد فيه سرير خال في بعض الليالي من نحو أربعمائة سرير كما قال لي مديره الصديق الحبيب الدكتور فهد العبد الجبار .

ومع كل هذا .. ومع أنني سأعود حسب تعليمات المستشفى لتفقد أحوالي ــ وعسى أن لا يكون ذلك بفحوصات كالتي مضت ــ أرجو أن لا أعود[1] أبداً إلى النوم فيه فضلاً عن سواه .. أيًّا كان مستواه العلاجي والعلمي .. وأيًّا كان مستوى الخدمة الفندقية فيه .. مع ما أرجوه له من المزيد قُدُماً ، كما أرجو لسواه من مستشفياتنا الأخرى أن تلحق بمستوى (التخصصى) ولم لا يكون إن تحققت إدارتها على نحو ما يدار هو به من القوة والصلاحية وتكامل الأسباب ؟؟ والبحث في هذا مرجعه لأهل الاختصاص .

وأخيراً لا يسعنى وقد طال الكلام غير أن أدعو لكل من غمرتنى مشاعرهم على نحو ما أسلفت .. بأن يجزيهم الله عنى أطيب الجزاء .

---

(١) لقد عدت مرة أخرى للنوم فيه .. ومراراً للمراجعة والفحوصات كما سيتضح من مقال بعد هذا.

ثم أرفع رأسى إلى السماء وأخر ساجداً بها وبكل جوارحي ونفسي على تراب بلدي : هاتفاً من أعماقي :

شكراً .. يــارب .

(★) بعض من ورد ذكرهم في هذا المقال ساروا إلى رحمة الله .. يرحمنا وإياهم الله .

على هامش الجوع

(١)

توقفت عن الأكل والشرب ـــ حسب تعليمات الطبيب المختص ـــ قبل منتصف ليلة اليوم الخامس ، كما أظن ، من أيامى في (المستشفى التخصصي) ثم حوالى الثامنة صباحاً ـــ وقبل أن تأخذنى العربة المخصصة لنقل المريض عبر الممرات (والأسانسيرات) إلى حيث تجري الفحوصات أو العملية المطلوبة له ـــ جاء من يسألنى من أهل مطبخ المستشفى عن رغباتى في مواد وجبتى الافطار والغذاء ليعتمدوها في حدود الطاقة الحرارية المسموح لي بها من الأطباء .. وأضفت بعد شرح رغباتي أنني سأكون بعد الفحوصات والصوم الذي سبقها في منتهى الجوع ، فقيل لي ستجد الافطار جاهزاً حال عودتك بعد الفحوصات .

وكانت عقارب الساعة على الحادية عشرة عندما رجعت محمولا على العربة ، وقلت لمن هناك : ها أنا ذا فأين الفطور ؟ قالوا : حالا .. وظللت في انتظاره أمسك ريقي عن التلمظ ، وأعصابي عن الاحتدام ، متسائلا بين كل دقائق وأخرى عن الفطور .. والجواب دائماً أنه في الطريق .. ويشب إلى خيالي طيف العربة التي تحمله عادة إلى الغرفة ، وكأنما عليها إكسير الحياة !

وحطت عقارب الساعة على الثانية عشرة .. وقفزت أعصابي وأنا معها إلى باب الغرفة صارخاً في وجوه من هناك : لا أريد الأفطار .. هل تسمعون ؟.. إياكم أن يأتي فانه لن يدخل الغرفة .. ورجعت إليها وهم في

أثرى تباعاً لمعالجة ثورتي .. وأخذ يسكت عنى الغضب عندما قال أحدهم : لقد حدثت غلطة .. وحدقت فيه بمعنى السؤال .. قال : لقد ذهبت الممرضة بإفطارك إلى مريض آخر كان مثلك فى الانتظار .. قلت وقد حضرتنى الفكاهة : (يابختة) لقد أحسنت اختيار مواد الإفطار لحسابه ، فعسى أن يلائم مزاجه الصحى والطاقة الحرارية التي لا ينبغي له تجاوزها ــ حفظه الله ــ وعلى أي حال ربما كان من المناسب اشعار الطبيب بما حدث لتدارك الأمر قبل فوات الأوان إن لم يكن ذلك التلاؤم المطلوب .. ثم أين (وجبته) هو ؟

ثم أضفت أنه بالقياس على ما كان أخشى أن تأتينى الممرضة بعلاج مقرر لمريض آخر يشفيه وُيمرِضُنِى أنا ــ لا سمح الله ــ وبعد تداعي الخواطر على هذا النحو جاءت الممرضة التي ذهبت بافطارى لغيري ، آسفة معتذرة بما أذهب بقية ما كان في نفسي إلى ماوراء التاريخ !

قلت وهم يلوحون بالإفطار : لا داعي له ــ كما أظن ــ فنحن الآن في موعد (وجبة الغذاء) .. سأتناول بعض (السوايل) في انتظارها وبعض الشاى ، والمهم أن لا تتكرر القصة ، وتذهب الوجبةلمريض آخر !



على هامش الجوع
(٢)

ما أكثر ما كانت الخواطر تتنازعنى وأنا أكابد الألم والجوع على غير اشتهاء .. أو على اشتهاء يقاومه الْغَثَيَان في (سنغافورا) .

ربما كان بعض هذه الخواطر أصح أو ألحن حجة من بعضها .. ولكن ما هي ؟ وكيف تتداعى وتتنازعني ؟ وعندما يقول أحدها ويجيبه الآخر ، ويبدو أن لي بينهما رأياً وَسَطاً ، أو هو يميل ضِدَّ أحدهما أو كليهما ـــ أشعر بالحاجة إلى تحديد ذاتيتى ومعرفة من أنا على وجه التحديد بين مجموعة خواطر كهذه تأخذ حريتها في داخلي على أوسع نطاق !

حقاً .. أى ملكوت يحتويه الإنسان ويجهل تفاصيله ، ثم لا يردعه مثل هذا الجهل ، ويظل يخوض به ومعه في ملكوت السموات والأرض كما لو أوتي العلم كله بخزائن الغيب والأسرار !

ويتكلم الضجر في نفسي ضد ما أعانيه من ألم وخواطر بما معناه : أن الموت ربما كان أهون من الألم ومعاناته إذا طالت على الأخص .

إنه يريح الإنسان منها ومن حياة لعل أحسن الفروض فيها هو السلامة من كل شيء إلَّا الموت ، فإنه نهاية المطاف على أية حال .. كيف هي إذا مرت الدقيقة مرور الساعة أو اليوم الثقيل لما يبدو أنه فوق الطاقة من الألم والمزعجات ؟

ولكن الموت ليس مرغوباً فيه كالحياة التي يهون ــ غالباً ــ على الإنسان أن يصابرها مهما اشتدت وتفاقمت بلواه .. بالإضافة إلى أن في الناس من لا يتمنون الموت ويكرهونه بما قدمت أيديهم .. وأمنيته ليست مطلوبة إلا بأن يسأل الله الحياة ما دامت خيراً له .. والوفاة إن كانت خيراً له كما ورد معناه في الحديث الشريف ، وهذا لا يتعارض مع فرحة الصالحين إذا أحسوا بدنو أجلهم على نحو ما .

لقد كان بلال ــ سيدنا كما قال عمر رضي الله عنهما ــ إذ أوشك على الموت في غمرة من السعادة وهو يردد : (غداً ألقى الأحبة .. محمداً وصحبه) أو شيئاً كهذا المعنى .. وبكت الزهراء رضي الله عنها وسيّد الخلق والدها يحتضر ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ثم ضحكت بعد أن همس فى أذنها بأنها أول الناس لحوقاً به .

إنه ــ أي الموت ــ قمة السعادة حقاً إذا اقترن بعفو الله ورضاه .

وتنبهتُ فيما يشبه الذعر لخواطرٍ كهذه تدور حول الموت .. وأنا أغالب الألم في (سنغافورا) !

إنني أكره أن أموت وَأُوَارَي في غير تراب بلدي وإن كان الموت في الغربة شهادة كما يقال ، وإن ترجح الدفن ــ ربما من أجل هذه الشهادة ــ حيث يموت الإنسان ما لم يلحقه أذى غير لائق بالمسلمين .

ونفضت عن نفسي معاناة المرض والألم بما يشبه الهلع من خواطر الموت .

ورجعت إلى الرياض بهيام يموت حباً في هذه الحياة !

للعلاج بين القارات

(١)

طابت نفسي أو طاب هواي ــ كما يقال ــ ربما إلى درجة التشاؤم من (سنغافورا) بعد ما سبق أن عانيته فيها ورجعت به عليلاً إلى (المستشفى التخصصى) في (الرياض) كما سبق أن تحدثت عن ذلك قبل بضع سنوات في مجلة (إقرأ) باسم أو بعنوان (خيال عابر القارات) غير أن أخاً عزيزاً تحدث إلي بعدها عن (بروفسور) صينى يعيش في (ملبورن) وأشاد أيما إشادة بعبقريته التي تجذب الناس إليه من مختلف أنحاء العالم .

وكأنما هو طاقة سحرية تعالج وتشفى من أية علل وأمراض بطريقة (الأكيوبانشر) كما يسمونها ، وهي طريقة من ضمن مقوماتها (الوخز بالابر) أجاركم الله .. وقد جربت أكثر من مرة هذه الطريقة ونظائرها مما يمارسه الصينيون ، وأقرتهم عليه هيئات علمية متفوقة ، وكانت آخر تجربة لها في (سنغافورا) يوم كنت فيها ، ورجعت منها كما أسلفت للرياض ، فلم أستفد شيئاً يذكر ، وربما استفاد غيري .. لهذا ترددت طويلا في الاستجابة لمعاودة أية تجربة مع من أشار الأخ العزيز إلى عبقريته المبدعة في (ملبورن) ولكن (الدَّوِيَّ) غلاب ، فقلت من يدري ؟ ربما كان بارع الأثر والتأثير في معالجة ما فسد من (ركبتي) وأصر هو على التفضل بمصاحبتي فى رحلة طويلة ابتدأت من الرياض .. وكان لابد من الاستقرار يومين في (سنغافورا) لارتفاق الطائرة منها إلى (ملبورن) في جنوب (أوستراليا) .

وتبدو (سنغافورا) مدينة جذابة بتوافر المتطلبات فيها على اختلافها ، وبتطورها السريع الذي يضعها في مصاف دول العالم الأول ، على ما تمتاز به من نظافة غدت مضرب المثل ، ومن دواعي الأمن والأمان ..بالإضافة إلى جالية عربية ، وأسواق ومرافق عربية ، وتحركات للوعي الإسلامي تغرى بالمتابعة والاهتمام .. ومعلوم أنها نمت وتطورت بعد انفصالها عن (ماليزيا) واندماجها كعضو مستقل في دول (الكومنولث) ولقد انزوتْ فيها ، حكماً ومجتمعاً واقتصاداً ، ملامح القومية الأصيلة .. ربما إلى حد الذوبان في الطابع الصيني الذي يسود المنطقة تدريجيا وليس (سنغافورا) وحدها .. وربما كان غير بعيد ذلك اليوم الذي يطفح المد الصيني فيه على المنطقة كلها .

ثم واصلنا الرحلة أنا والصديق الذي زيَّنها للاستشفاء عند العبقري الصيني في (ملبورن) وكان المفروض أن نذهب إليها في جنوب (أوستراليا) رأسا من (سنغافورا) ولكن قائد الطائرة أعلن ونحن نجتاز المحيط بعد منتصف الليل أننا في الطريق إلى (سيدنى) لأسباب تتعلق بالأيدي العاملة في مطار (ملبورن) ولا يسع المسافر في مواجهة مثل هذه المفاجآت عادة إلا الاستسلام إلى درجة التبلد .

وهبطت الطائرة فعلا بنا في مطار (سيدني) ــ وقد تحدثت عنها بايجاز فيما سبق نشره من (ذكريات مسافر) ــ وأخذنا مجلسنا بين ركاب (الترانزيت) وذهب الصديق في مراجعات طالت لتدبير مواصلة سفرنا إلى (ملبورن) وبعد بضع ساعات أمضيناها فيما يشبه التسكع على موائد الانتظار ، ثم في الطائرة التي أقلتنا من (سيدني) وصلنا (ملبورن) ظهراً ، وأخذنا طريقنا من المطار إلى (فندق) متوسط الحال ، ثم بعد حط الرحال والتأقلم بمحتوياتنا فيه تفضل (البروفسور) الصيني بزيارتنا ، وبعد حوار التعارف وفحوصات عاجلة أجراها ضرب لنا موعداً في عيادته التي

كانت تبعد عن الفندق بما لا يقل عن نصف ساعة كنت أتأمل خلالها يوميا شوارع ومرافق (ملبورن) التي يغلب الطابع الإنجليزي عليها وعلى الوعي والنظام ليس في (ملبورن) وحدها بل في (أوستراليا) إجمالا بحكم استقرار الإنجليز بها منذ اكتشافها .. إلى أن نزحوا عنها كحكام مباشرين ، واتخذت مقعدها بين دول (الكومنولث) وظلوا كحكام غير مباشرين ، وكقومية ووعي وسلوك ونظام عمراني وحضاري .. إلى آخر ما قد يصور للإنسان أنه يتنقل في بلاد الإنجليز لا في بلاد أخرى تغايرها جوا ومناخاً ، وتبعد عنها نحو أربع وعشرين ساعة بالطائرة .

ولقد ارتبطت بالعلاج صباحاً أو مساء لدى (البروفسور) الذي لم يتورع عن القول بأنه ـــ أي العلاج ـــ يتطلب من الوقت مالا يقل عن ستة أشهر .. وعندما أبديت استحالة قضاء وقت طويل كهذا في (ملبورن) أو غيرها باستثناء بلدى أبدى استعداده للمجىء إلى حيث أكون لعلاجى !

ولم يسع صديق الرحلة إلا أن يعود بعد أسبوع لمقر إقامته وعمله في الرياض من نفس الطريق الذي قدمنا معا منه .

أما أنا فقد أمضيت خمسة عشر يوماً لم أنقطع فيها عن العلاج اليومي وعن أداء ما تيسر من التكاليف في شكل دفعات متتالية للطبيب الذي قلت عنه فيما بعد لصديق الرحلة : لعله (حرامي) وإن كان قد مضى بنا مراراً إلى داره التي تلفت النظر باناقتها ومستواها ـــ لتناول ما تيسر من الطعام والشراب .. والعلاج في هذه الأثناء !!

على أن عيادته ـــ والحق يقال ـــ لم تكن تخلو من أكداس المراجعين والمراجعات ، ومعظمهم من أهل المنطقة الذين يفترض فيهم ترجيح العلاج بالطرق الحديثة على الطريقة الصينية أو غيرها مما قد يستغرب العقل ـــ

المتأخر على الأخص ! ــ أن يجد له مجالا في (أوستراليا) أو في العالم الأول كما يقال !

ثم لم يسعني غير أن أضرب بعرض الحائط وعود (البروفسور) وعلاجه .. وما أنفقته من زمن ومال مأسوفًا أو غير مأسوفٍ عليه .. وهكذا اتخذت العودة عن طريق (هاواي) أو (هونولولو) .

وكنت وحدي في الدرجة الأولى بطائرة (الكوانتس) التي يلوح أنها تخص ركاب هذه الدرجة بمضيفين ــ لا غير ! ــ ربما لإتقان الخدمة في رحلاتها الطويلة !

وأخذ المضيف يشرح لي وحدي تعليمات شد الحزام .. و (الأوكسيجين) وأطواق النجاة والسباحة .. إلى آخرها ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ وأخذت أحملق فيه وفيما يبدو من نافذة الطائرة بشيء كالبلادة ، وقد ارتفعت من مطار (ملبورن) في (أوستراليا) فتصورت هول المسافة التي تقدر بآلاف الكيلو مترات .. بيني وبين وطني الغالي ، هذا عدا المسافة التي اقتحمتها الآن ، فقد نزلت الطائرة بعد نحو أربع ساعات في مطار (فيجي) وهي جزيرة في المحيط كنت قد سمعت عنها من قبل ما يغرى بالبقاء فيها أياماً .. لا لحظات ، كالتي قضيتها ضمن ركاب (الترانزيت) متجولا في مطارها الصغير .. ويبدو من ملامحه ومن ملامح الجزيرة التي كانت توصوص في أضواء الليل أنها قد لا تخلو من أسباب المتعة والهدوء .. وترجح ذلك لديَّ بعد أن عدت إلى الطائرة ، وامتلأت مقاعد الدرجة الأولى التي كنت وحدي فيها .. بركابها من مطار (فيجي) وأخذ مقعده إلى جوارى أمريكي من أهل (اريزونا) كان يبدو في حالة انسجام أو كمن يهم بالرقص وهو يحدثني عن مدى سعادته بأيام قضاها في (فيجي) .. وعن مقر عمله في (لوس انجلوس) وعن حياته العائلية .. وعن ضرورة الاجازة للزوجين ، على أن يقضياها بعيدين عن بعضهما .. باسم تجديد الهيام !.

قلت في نفسي : يالها من اجازة .. وياله من هيام !.

لقد تطور الشعور بالحياة الزوجية إلى درجة التسامح الكبير في عالم الحضارة التي تلوح مصقولة في نهاية القرن العشرين ..!

واتصل حديث الرجل الذي كان مهووساً بالاجازة وبأيامه السعيدة في جزيرة (فيجي) رغم أنه كان يختلس النظر إلى (الفيلم) الذى كان معروضاً كالمعتاد أمام ركاب الطائرة ، ثم يعود ليواصل ما انقطع من كلامه ، وإن تشاغلت بمطالعة ما معى من كتاب .. ثم لم يسعنى غير أن أسحب الغطاء على وجهي .. وإن كنت لا أنام ــ غالبا ــ في الطائرة ، بل أسترخى وأغمض جفوني فحسب .

وكانت شمس الضحى قد ارتفعت في هذه الأثناء .. كان هو ضحى يوم الثلاثاء ١٩٨٦/٤/١ الموافق (١٤٠٦/٧/٢٢) وهو نفس اليوم الذي قضيناه بالأمس في (أوستراليا) نعود إليه أو يعود إلينا في (هونولولو) التي حطت بنا الطائرة فيها بعد طيران عشر ساعات بما فيها ساعة الانتظار في مطار (فيجي) .

ثم لم يطل مقامي في (هونولولو) التي طرقتها مراراً من قبل ، وتحدثت عنها في ذكريات سابقة ، غير أن سكني في هذه الجولة العابرة كان يشرف ، من إرتفاع أربعة وثلاثين طابقاً ، على كل ما هناك في أطرافها الخضراء .. وهاداً وجبالاً تحتضنها البراكين التي تنفجر من وقت لآخر ، وكأنما لم يعد يعبأ بها الناس ، ثم في عماراتها الشاهقة التي تتلامح فيها الأضواء وأصوات الموسيقى ، وشوارعها التي تغص بالعراة إلا مما يستر ــ وقد لا يستر ! ــ ما ينبغي له الستر من مطاوى الأنثى على الأخص !

وهناك البحر الذي يلوح مَدَّ النظر وعبر الآفاق التي تطوقه كما يطوق الخيال الحقيقة .. أو كما يطوق هو جزراً صغيرة .. تبعثرت فيه كأحلام الحيارى .. وتبدو شواطئه كالشريط الممتد من حيث يبدأ وإلى حيث

لا ينتهي فيما يلوح أنه شيء كالأبد .. وعلى الشواطىء يترجرج الناس كالخلايا .. في حركة دائبة وسكون يعانق الرمال .. وتتقاذف الأمواج أجسادهم ومراكبهم في جوٍ مَرِحٍ تملؤه الغبطة وأفانين اللهو واللعب وما يبدو أنه كامتصاص الحياة !

وأعود من تأملاتي إلى قصة جزر (هونولولو) التي يلوح أهلها كيانًا خاصاً ، لهم فيه ملامحهم وعاداتهم وتقاليدهم بما فيها الرقص والموسيقى .. ثم لغتهم التي لا ينطق بها غيرهم ، حيث تسود اللغة الإنجليزية ثم الطابع الأمريكي بعد أن اشترتها الولايات المتحدة ــ كما يقال ــ من (الإنجليز) الذين اكتشفوها أصلا واستعمروها كغيرها ، وأصبحت أمريكية رغم أنها تبعد عن أقرب شاطىء أمريكي إليها بما لا يقل عن أربع ساعات ، ولكن الأهم من بعد المسافة جدوى العلاقة ، وعلى سبيل المثال استلحاق (اسرائيل) كولاية أمريكية في الباطن أو على المكشوف ، رغم أن المسافة بين التابع والمتبوع تقدر بآلاف الكيلو مترات !

لقد كانت جزر (هونولولو) أو جزر (هاواي) وكلاهما اسم جزيرة غير الأخرى ولكنه يطلق على المجموعة التي هي سبع جزر تتفاوت أحجامها ــ كانت هي الخط الدفاعي الأول أمام القارة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية ، وأحسبها ستظل كذلك .. الأمر الذي قد يفسر تشديد قبضة الأمريكان عليها .. كما قد يفسر تشديد قبضتهم على إسرائيل أنهم في حاجة إلى خط هجومي في قلب الشرق الأوسط !

وانتقلت بتأملاتي للبحث عن وجبة غداء ملائم .

ثم أمضيت أربعة أيام بين البحر والشواطىء والأسواق .. والتأملات .. وشددت الرحال إلى مطار (تورونتو) في (كندا) بعد منتصف الليل وبعد التماس العلاج بين ثلاث قارات !

للعلاج .. بين القارات

(٢)

كنت قد سمعت الكثير عن « بروفسور » متخصص في أمرض « الركبة » التي أعانيها من بضع سنين ، وعن أستاذيته في جامعة « بوستن » ومستشفياتها التي تتمتع بشهرة واسعة في الطب والتطبيب على اختلاف التخصصات .. إلى آخر ما حملنا على مغادرة مطار « هيثرو » من لندن في الشهر العاشر من عام ١٤٠٦هـ أى الشهر السادس من ١٩٨٦م .

ووصلنا « بوستن » بعد نحو سبع ساعات مضت بين المطالعة والاسترخاء وتأمل بدائع الخلق في عالم الطائرة ولا نهائية الفضاء ، وفي الناس الذين هم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ووجهاتهم وما تطويه صدورهم ــ لا يكادون يختلفون في مظاهر الشكل والتصميم .

سبحان من خلق فسوّى وقدّر فهدى ، ومن أبدع الاتفاق والاختلاف فيما لا يعد ولا يحصى من الظواهر والبواطن ، وفي كل شيء .

وهبطت الطائرة .. وكسبنا خمس ساعات من اختلاف المشارق والمغارب ، ويتحول هذا الكسب إلى خسارة إذا رجعنا من حيث أتينا كما لا أحتاج أن أقول .. وعلى الكسب والخسارة ما أضيع الوقت أو العمر كله في التفاهات !

وكان في استقبالنا طبيب فلسطينى لم تتسع سيارته الصغيرة لنا ، إلا بمساعدة « تاكسى » أخذ سائقه الفلسطينى أيضا يتحدث عن ذكرياته

مع إخوان سعوديين عمل في تنقلاتهم ، وعن مكارمهم التي أشاد بها .. ربما لنفهم المقصود !

وأمضينا فترة مملة في انتظار إتمام إجراءات التسجيل وما لا أدريه مما هو أقرب إلى « الجليطة » في تعامل الامريكيين كنظائرها فيما يسمونه العالم الثالث ، وعلى سبيل المثال اختلاف الحرف أو الحركة في الاسم بين الجواز وبين ما هو مسجل عند قسم الحجز في الفندق .. وخلال هذا الانتظار الممل ، وعلى مقعد وثير في صالون الفندق ، أخذت أسرح بدهشة التأمل في المحتويات وفي « الديكور » الذي ينتظمها ، وحركة النزلاء والوافدين .. والعاملين والعاملات في الادارة ، وفي الخدمة بما فيها نقل حقائبنا أخيرا بعد « الجليطة » على عربة أخذت تدفعها أمامنا فتاة في مثل أناقة الزهور ، ظننت كل شيء إلا أنها عاملة كغيرها في زي لا تنقصه الرشاقة وبأسلوب « الجليطة » إيّاها على كل حال !

وأخذنا نطل من غرفتنا على « بوستن » وحركة المرور التي لم تكن فيها مزعجة كمدن أخرى من طراز « نيويورك » أو « شيكاغو » لا يتفاوت كثيرا فيها وبينها طراز الحضارة أو العمران .

وكان هم « ربيع » أصغر أولادى أن يجد مسبحاً لإشباع هواية السباحة التي تعودها منذ تعودنا ارتياد « برايتون » صيفا على الأخص وهو طفل .. ياليته ظل طفلا !

وكان وما زال يهوى — بالإضافة إلى السباحة — مشاهدة الأفلام في دور « السينما » مع أن « التلفزيون » يقدّم « أفلاما» ولا يتوقف عن البثّ مُطْلَقاً على الأخص في أمريكا ، وتنقل قنواته من محطات أخرى غير محطة الولاية أو المدينة التي يبثّ أصلا فيها ، ثم يكمل النقص — ان كان — جهاز « الفيديو » ليكمل ضياع الجيل فيما لا يسمن ولا يغني إلا كما يغني « السندوتش » إذا رقّ وخلا من مقومات الغذاء المفيد !

وكان الملل يتطرق إلينا بما لا يخلو من القلق إذا غاب حتى يعود من المسبح أو من دور « السينما » التي يغص الفندق بها وبمرافق أخرى كألعاب « الكمبيوتر » و « الالكترونيات » وما إليها من ملحقات الضياع أو « السندوتش » .

إن ما يقال ويسمع عن الجريمة في العالم الأول قد يبرر الحذر والقلق .. على الأخص في مشاعر الوالدين !

وأمضينا أكثر من يومين في جولات مع رفيقنا الطبيب الفلسطيني بين أسواق « بوستن » وشوارعها ومطاعم مهاجرة إليها كالياباني والهندي وغيرهما .

وهناك سوق شعبية ممتعة لا تكاد تنقطع الحركة فيها تحت أضواء الليل بين المطاعم والمقاعد المنتشرة في ميدان فسيح لا تقتحمه السيارات .. وتختلط أصوات نوافير المياه بأصوات تنبعث من بعض الحناجر والآلات الموسيقية التي تأخذ حريتها هناك !

وكان الصديق يحدثنا عن كفاحه ليعيش وليدرس الطب على حسابه ، ويعيش مثله عشرات الألوف من الفلسطينيين ومئات الألوف من العرب في كفاح متواصل يتفاوتون فيه بين مختلف المدن الأمريكية التي يهيمن عليها نفوذ اليهود قاتلهم الله .

ولا أكاد أنسى جولة طريفة مع « التورست » ضمن « أوتوبيس » في أطراف « بوستن » وضواحيها ومنشآتها ، وكان قائد « الاوتوبيس » يشرح لنا ما تيسر كالمعتاد من معلومات لا أهمية لها في الأغلب الأعم .. وانتهت الجولة بزيارة عابرة لمتحف أسماك يؤدى « الدولفين » فيه رقصاته وألعابه المعروفة .

كما لا أكاد أنسى شخصا مررنا به في الجولة كانت على صدره « يافطة » مكتوب عليها أنّه جائع ، وقيل لنا ـــ والعهدة على الراوى ـــ إن هناك أرقاما ضخمة من الناس يعيشون هائمين كيفما اتفق .. ولا مأوى لهم !.

وفي ردهة الفندق التي تصعد « الأسانسيرات » منها وتهبط إليها تذكرت خادمة العربة التي ذكرت من قبل أنها تنقل أمتعة المسافرين عندما رأيت ماسحة أحذية تقتعد بأدواتها جانبا من الردهة ، حيث يمد الراغب قدمه إليها على مرتفع مناسب ، لتأخذ هي في دَلْكِ الحذاء وتنظيفه ثم تلميعه مقابل ثمن زهيد قد يسرف الزبون في مقداره خاصة إذا انسجم بعد التأمل والمحادثة في هذه الأثناء ! والحق أن « بدلة » رشيقة وافرة تستر جسمها بكامله عدا الرأس والوجه طبعا ، مما يعطيها مظهر الأناقة مع الاحتشام !

ولقد دفعني الفضول وأنا أتعامل معها كغيري إلى مساءلتها عن نفسها ؟ ومن أين هي ؟ ولماذا تعمل على هذا النحو ؟ واتضح في نتيجة الحوار أنها من « لوس انجلوس » وأنها تدرس في جامعة « بوستن » وتغطّي تكاليف إقامتها من أداء هذه الخدمة على نحو لا يحط من شأنها أو من شأن الخدمة نفسها ، لأن العمل أيّا كان لا يعاب في مذاق الحداثة أو الجيل الحديث !.

ثم هي بالإضافة إلى مسح الأحذية تقدم عزفا منفردا على « البيانو » في صالون معد لجلسة مسائية هادئة في إحدى زوايا الفندق !

لقد دفعت الحضارة بالمرأة ، على أساس مبدأ المساواة الموهومة بينها وبين الرجل ، إلى السوق أيّا كان نوعُ العمل فيه لإشباع غريزة الجوع أو غرائز الحياة إجمالا بعد انهيار عالم البيت والأسرة هناك !.

وتشير لمحات كالتي أسلفتها إلى ضياع الجيل بين متاهات الحضارة ومنجزاتها ومخازيها معا .. في مظاهر مصقولة يخدع هواتها خيال التفوق العلمي في « مجارى » القرن العشرين !.

وحان موعد لقاء « البروفسور » في مستشفى جامعة « بوستن » بعد بضعة أيام مضت في المراجعة والجولات التي تحدثت بإيجاز عنها .. وذهبنا إليه وظللنا ننتظر أكثر من نصف ساعة ، ومثل هذا الانتظار أو التأخير لا حيلة للطبيب ــ غالبا ــ فيه إذا كان بين يديه مريض تحت الفحص أو المراجعة .

ثم أخذ « البروفسور » يفحص ركبتي على ضوء « الأشعة » التي صوّرتْها حسب طلبه في الحال .

وحدد لى موعداً آخر ليطلعني على عملية « الناظور » التي يرجح ممارستها في احدى الركبتين ، وجئت في الموعد المحدد ، وأخذت مجلسي في غرفة صغيرة مظلمة ، وتحرك أمامي شريط يصور عملية « الناظور » التي أجراها في « ركبة » أحد المرضى بعد أن استغرقه « البنج » فتدفقت منها مياه يخالطها شيء كفتات العظم أو ما لا أدريه من محتويات الركبة ، ثم رتق الجراح ولفّ ضمادات عليها ، وتنبهت على صوته وقد جاء متسائلاً عن رأيي في إجراء مثل ما رأيت على ركبتي اليمنى ؟

قلت : وهل يجدي ذلك ؟ قال إنه يرجح جدواه .. وأضاف قائلا : بعد أن تنجح عملية « الناظور » فى اليمنى نجريها في اليسرى حسبما يتفق عليه فيما بعد .

ووافقت وتحدد موعد العملية بعد إجراء الفحوصات الشاملة التي استغرقت يوما ، ثم اجريت العملية في نحو ساعة ، وصحوت بعدها بما لا يزيد عن ساعتين على وضع مريح في غرفة مستقلة لا يرتفع مستواها

ومستوى الخدمة فيها ، إن لم ينخفض ، عن نظائرها في « المستشفى التخصصي » في الرياض !

وظللت يومين أدور في فلك الغرفة والمرافق المجاورة على عربة ثم بمساعدة « عكاز » تحت الابط .

وعدت بموافقة الطبيب وركبتي بين اللفائف وبالعكاز إياه ، إلى الفندق .. وكنت لا أبرحه غالبا إلا إلى المستشفى لمراجعة الطبيب وتغيير اللفائف بالتالي .. وظللت عدة أيام أمارس المشي بالعكاز ، وأتخلى عنه أحيانا لأن التوازن حاصل بدونه ، ولأن مظهره تحت الابط قد يرمز للعجز مما كرهته .. خاصة هناك في جو الحضارة !

وبعد نحو سبعة عشر يوماً في « بوستن » بما فيها الأيّام الأخيرة أذن الطبيب بالسفر على أن أعود فيما بعد للمعاينة ولعملية مماثلة في « اليسرى » إذا قررت أنا إجراءها .

وحملتنا الطائرة من « بوستن » إلى « لوس انجلوس » في نحو ثلاث ساعات ونصف .

وفي مكتب القنصلية السعودية هناك كان طبيب سورى مهاجر يحاول إقناعي بأن أواجه طبيبا بارعا مختصا بأمراض الركبة في « سان فرانسيسكو » التي عقدنا العزم على الذهاب إليها بعد بضعة أيام أمضيناها في « لوس انجلوس » بين ملاعب ومشاهد « ديزني لاند » ثم في معايشة الزلازل التى تحركت ونحن هناك مرارا ، ويتحرك معها من الغرفة ومحتوياتها ما قد يثير الهلع لولا أنّنا قد عرفنا القصة وتعودناها .. وسألنا ونسأل الله السلام منها ومن مضاعفاتها على أى حال .

ولم أذهب إلى الطبيب المذكور في « سان فرانسيسكو » وانما تجولنا بها جولات طريفة ، وكان سائق « الاتوبيس » الكبير الذي يقلنا ضمن

ركاب تختلف هواياتهم ـــ كان يشرح معالم « سان فرانسيسكو » ويتغزل ويغنى بإسمها .. ويصفق له الركاب أو بعضهم !

ثم لم أشعر بأي تحسن يذكر في ركبتي بعد أن اتخذتْ وضعها كما كان قبل العملية ـــ الأمر الذي زهدني في الطب والأطباء حينذاك .

وأخذت الطائرة من هناك في نحو ساعة ونصف إلى « فان كوفر » وذهب من كانوا معى إلى « برايتون » التي تعيش بمسابحها وملاعبها وَبِعُجَرِها وَبُجَرِها ، في أحلامهم وذكرياتهم كلما أقبلت عطلة الصيف !.

❁

من سويسرا إلى المستشفى التخصصي

(إذا أدرك اللطف القضاء والقدر)

أخي عبد الله الجفري

بعد أطيب تحية ــ لقد تفضَّلْتَ فوضعتني في (ظلال)[1] ندية رقيقة لم أشعر بها يوم أن وضعتني فيها ، لانني لا أقرؤ من الصحف إلا ما يصادفني عمداً أو سهواً .! غير أن الصديق عبد العزيز ساب حدثني عما تفضلت به ، وبعث إليَّ العدد الذي كان فيه ذلك الفضل أو تلك الظلال .

وكنت قد حاولت من قبل أن أكتب قصة ما كان من أمري مع اللطف الذي حصل ، فشجعني تفضلك على أن أواصل الكتابة في ظروف لا تتصل إلا لتنقطع ، والعكس أيضاً .

وحاولت أن أكلمك هاتفياً فخابت المحاولة .. واستنجدت بصديقنا (العمدة)[2] وذكرت له أنني سأبعث اليك بما أنتهي إليه من مقال ــ إذا قدر له أن ينتهي ــ كشكر وتحية وجواب على (سَدْحي) الرقيق في تلك (الظلال) .

---

(١) هي كلمة طيبة تفضل بها في زاويته اليومية المعروفة بعنوان (ظلال) في صحيفة (عكاظ) فهي المعنية بما ذكرته في هذه المقدمة .

(٢) العمدة المقصود هو الكاتب الشهير الصديق عبد الله خياط .. وقد حصل على لقب (العمدوية) اعتباطاً في أيام الجيل الجديد سابقاً .. القديم حالياً .. والمنقرض غداً .. وسبحان من لا يفنى .

ولقد طال المقال فاضطررت لجعله فصلين[1] .. أترك لك كامل الحرية في نشرهما متسلسلين طبعاً في الجريدة التي تختارها لهذا الغرض .. حيث لاحظت أنك تتنقّل بين عدة صحف كما أظن .. والتنقل أجدى من الالتزام أحياناً !.

واشتراطي أو رجائي بلغة أرق هو سلامة ما ينشر من الخطأ أو (الْبَهْوقة) أو ما إليهما مما لا يخفاك .. وسلام الله عليك مع أطيب الشكر والتمنيات .

أخـوكم

محمد عمر توفيق

---

(١) عندما نشرا في (عكاظ) نشرا كفصلين أو كمقالين متتاليين .. أما هنا فقد نشرا كمقال واحد .

منذ نحو سنتين ، وأنا أكتب هذا في الشهر الخامس من عام ١٤٠٨هـ ، رجع عابر القارات ـــ كما قال حينذاك ـــ من أقصى الجنوب في الشرق الأقصى إلى الرياض وبالتحديد إلى (المستشفى التخصصي) لمعاناة قصة من الفحوصات والعمليات بعد أن اعتل فجأة وهو بين البر والبحر في (سنغافورا) وَفَضَّل معاناة هذه القصة في تراب وطنه على معاناتها بعيداً عن هذا التراب !

وَلَمْ تَخْلُ القصة من الإشارة إلى مكارم المتفضلين وتفقدات أهل المروءة وذوى المشاركة والإخاء .. و ـــ أولاً وأخيراً ـــ من الإشادة بعراقة المستشفى في الفحص والعلاج ، وبادارة أعماله وخدماته وبتكامل أجهزته واستعداداته على أطيب المستويات .. إلى آخر ما تحدثتُ عنْه في مقال أو أكثر مما أحسبه غدا نسياً منسياً كأي هشيم تذروه الرياح !

ومضت الأيام .. ورجعتُ أو رجع عابر القارات إياه منذ حين إلى (المستشفى التخصصي) لمعاناة قصة أخرى من الفحوصات والعمليات غير ما كان منها قبل نحو سنتين .

وقد لا يطيب الحديث عن المرض وبالأخص عن بعض نوعياته لأنه شَرِسٌ أو مُعْدٍ أو يرمز لِسلوك ممقوت .. إلى آخر ما قد يبرر اقتصار الحديث على ما لا يشبع الفضول لمعرفة التفاصيل التي كنت أتحاشاها .. ليس لضرورة الحفاظ أو التستر علي شيء لم تكن لي حيلة فيه أيا كانت النوعية أو الأسباب ، بل لأن روايتها ـــ أى التفاصيل ـــ متعبةً لمن كان في مثل معاناتي لا سيما إذا تكاثرت الزيارات .. فالذي حدث أو كان يحدث هو أن أسرد نفس القصة ، وربما بنفس النص والألفاظ ، مراراً وتكراراً طيلة إقامتى في (المستشفى التخصصى) وبعدها إلى اليوم .. وربما إلى ما بعد اليوم مما دفعنى إلى تسخير قلمي لاملائها وإن كان الناس لا يقرؤن ما يكتب غالباً ، وقد يفضلون السماع على القراءة في الأغلب الأعم !

وأحسب أنها ــ أى القصة ــ من قصص اللطف الخفي إذا هو أدرك القضاء والقدر قبل فوات الأوان .

إنني ــ كما هو معلوم لدى البعض ــ أعاني من بضع سنين ما أعانيه في ركبتيّ ــ ويمناهما على الأخص ــ ويؤكد الأطباء العارفون الذين تناولوني بالفحص في الشرق والغرب وفي أكثر من مستشفى أو عيادة أن العملية ضرورية لاصلاح ما فسد من أمر الركبتين ، ثم يختلفون في تشخيص العملية فيرجح بعضهم أن يتم تغيير المفصل الأصيل بمفصل صناعي قد يطيب معه وضع الركبة إجمالا ، ولكن يتعذر طيها أو انثناؤها عند اللزوم كما كانت من قبل .. ويرجح معظمهم أن تكون العملية جراحية لإجراء تعديل وموازنة بين ما تمزق أو ضعف من العصب والأنسجة في المفصل الذي تآكل من بضع سنين ، وأنه بعد عملية كهذه سينتفى الألم أو يهون ، وتتيسر الحركةَ ولا يتعذر الاستمرار في وضع ملائم إلى ما شاء الله .

وهناك أقلية لا ترى لزوم العملية ، وإنما ترى التزود بما تيسّر من المسكنات ، وبالعلاج الطبيعي ما أمكن ، وهذا الرأي هو الأثير عندي .. ولقد حاولتُ العلاج الطبيعي مراراً في هذه الأثناء ، وحاولته بطريقة وخز الأبر الصينية وما إليها ، وفي عدة جهات من العالم المترامي ، بدون جدوى إلا التي تحصل أيام العلاج ثم تتلاشى بعدها .. باستثناء عملية محدودة أجراها (برفسور) كما قيل ويقال في (بوستن) بطريقة (المنظار) ولم تفلح شيئاً في علاج ركبتي اليمنى .. وظللت بعدها أهفو لأي علاج أتفادى به العملية المرجحة عند معظم الأطباء على نحو ما أسلف !

ومنذ أكثر من سنة حدثنى الابن فؤاد عن مركز للعلاج الطبيعي في (سويسرا) يعالج الغدد فيمن يعالجهم بأمصال الغدد التي يستخلصها المركز من الأجِنَّةِ في بطون أمهاتها الحيوانية ــ علاجاً يُجَدِّد الحيوية والنشاط !

وفي نهاية العطلة الصيفية الأخيرة ومع بداية العام الهجري ١٤٠٨ كنت في (برايتون) أتدبر العودة وعن أى طريق تكون إلى جدة عندما أعاد الابن فؤاد محاولته ــ بأسلوبه في النز والإلحاح ــ وبناء عليه أيضاً خاطبني بعض الأصدقاء هاتفياً من (سويسرا) لأذهب إلى المركز المذكور ، مؤكدين جدوى علاجه للجسم والصحة عموماً .. قلت : إنما اشتكي فحسب من ركبتيَّ ، فقيل إنهما ستستفيدان ضمن العلاج العام .

ورغم كل الحاح وآخر ترددت .. وأخذت طريقي من مطار (قِيتْ ويك) إلى باريس وأذهبتُ بضعة أيام فيما يشبه (الصرمحة) بين الفندق والمطعم والشارع وزيارة بعض الأصدقاء ، ثم تحول التردد الذي كان في نفسي ضد مراجعة المركز المقول عنه إلى إيجابية مدهشة هي ــ ولا شك ــ بادرة اللطف إذا أدرك القضاء والقدر ، فأخذت القطار السريع من (باريس) إلى (لوزان) واستغرقت مسيرة القطار نحو أربع ساعات في جو الحقول الخضراء ، وما يتخللها من مصانع وعمران متقطع .. إلى آخر ما قد يطيب لي أن أتخيل متاع الحياة فيه .

وَيرِقُّ المستوى في (لوزان) وفي منطقة (سويسرا) ، كلها ، وَيرقَى أيضاً .. ربما إلى حد (الجليطة) كالتي تلوح ــ مثلا ــ في اعتبار حركة (السيفون) بعد منتصف الليل مخالفة لأنها تزعج الجيران ــ والعهدة على الراوي وهو الابن فؤاد ــ أو في اتخاذ عدة إجراءات ومراجعات نظامية صارمة قد تستغرق عاماً أو أكثر إذا أراد مالك البيت أو الشقة إضافة (حمام) أو نحوه إلى الطابق الأعلى أو الأدنى . و « جليطات » أخرى كهذه أو تلك لا يتفق معها كما أظن أن يختنق جو السكن في فضاء خلابٍ ممتع كالذي كنا فيه بدخان كثيف مزعج كان يعُجُّ حوالينا ، وقال الابن إن أحد أهل الدور المجاورة يحرق أعشاباً هذا دخانها ، وقد تأذى الجيران من صنيعه واشتكاه بعضهم بدون جدوى .. ربما في انتظار تحركات نظامية من طراز تلك (الْجَلْيَطَات) فيما أظن !

ولكن مستوى الحياة ــ والحق يقال ــ عال في (سويسرا) ومع حيادها المعروف على مدى السنين والحروب العالمية التي مضت يبدو استعدادها للحرب ومفاجآتها على نفس مستواه عند الآخرين من أهل الحرب ومعسكراتها ، بما في ذلك المخابىء المحصنة ضد الذرة ومشتقاتها في كل مبنى وفي كل مكان !

ويبدو الناس هناك سعداء بالحياة رغم كل (جَلْبَطَةٍ) وأخرى من طراز ما أسلفت ، ورغم ارتفاع الأسعار خاصة على الغرباء الذين قد تبلغ تكلفة وجبة عشاء أحدهم مالا يقل عن مائة فرنك سويسرى ــ أى نحو مائتين وسبعين ريالاً سعودياً ــ في مطعم متوسط الحال ، وهي وجبة لا تخلو من الطعام محدوداً جداً ولذيذاً على أى حال !

وذهبنا يوم الإثنين ، وهو الموعد المحدد لزيارة مركز العلاج الطبيعي الذي قيل لي عنه ، في (مونترو) غير بعيد عن (لوزان) وبعد الحوار مع مكتب الاستقبال واتخاذ بعض الاجراءات الكتابية المعتادة ظللنا أكثر من ساعة بين الانتظار والفحوصات والتأملات .. ثم تناولتُ وجبة إفطار محدودة ضمن خليط من الناس كانوا يتناولون مثلها في غرفة صغيرة ، وفيهم من الأمريكان واليابان وغيرهم ممن جاؤا مثلي على الريق لأخذ عينات من الدم وسواه ، وأشعة صدرية باسم الفحوصات التي قيل إنه لابد منها لمعرفة ما إذا كان الجسم على قابلية للعلاج المعمول به في المركز أو المستشفى المذكور الذي ينام فيه رواده بضعة أيام لتعاطى العلاج طبق تعليماته ؟ وقيل لنا ــ بعد التجول لاختيار الغرفة الملائمة فيما إذا تقرر العلاج ــ إن الحجز يسبق الحضور عادة إلى المستشفى بما لا يقل عن شهر ، وهو لم يسبق حضورنا إلا بأيام قلائل ، غير أن الطبيب المختص ، وهو يتكلم العربية لأنه من أصل لبناني ، قال : إنه سيبذل الجهد لاختيار الغرفة الملائمة ، ثم طلب الاتصال به هاتفياً بعد ظهر اليوم نفسه للتفاهم على ضوء ما سيظهر من نتائج الفحوصات .

وكان جوابه بعد الاتصال أن نتائج الفحوصات على ما يرام ، غير أن صورة الأشعة الصدرية قد لاح فيها ما يستدعي المزيد من الفحص بواسطة مستشفى آخر أشار بأن نذهب غداً إليه غير بعيد من (مونترو) لإجراء تصوير أدق للصدر بأسلوب (الشرائح) كما حصل بعد أن ذهبنا واستغرق التصوير نحو نصف ساعة ، وقيل لنا إن النتيجة ستكون غداً لدى المركز إياه .

وذهبنا إليه من غدنا .. وأشار الطبيب ــ وهو يضع الصور المأخوذة لصدري في الأضواء ــ إلى بقعة بيضاء كانت في أعلى الرئة اليسرى لا تزيد عن حجم الأنملة ، وقال هذه إما أن تكون ورماً من النوع الخبيث (يعنى السرطان) ولكن من حسن الحظ أنه قد اكْتُشِفَ في أول تحركاته ، لأن كل ما عدا الصور من الفحوصات سليم ، وكان المفروض أن تظهر له أية أعراض فيها لو لم يكن هذا اللطف الخفي في اكتشافه مبكراً قبل فوات الأوان .. وإما أن يكون ورماً عادياً من قبيل (التكلُّس) أو (الدُّهْنِيَّات) مما لا خطر فيه ، غير أنه يرى ضرورة استئصاله بعملية جراحية عاجلة أيًّا كان نوعه وعلى أي حال .. ثم أضاف الطبيب أنه مستعد لاتخاذ التدابير المناسبة لاجرائها في أي مستشفى يمكن اختياره في (جنيف) أو (لوزان) تحت إشرافه إذا رغبنا .

وكان من الصعب اتخاذ قرار كهذا فجأة وبعيداً عن الأهل والولد .. والوطن ، فقلت شيئاً بهذا المعنى للطبيب ــ وأعصابي ولله الحمد في ثَلَّاجَةٍ من برد اليقين والاطمئنان ــ وسألته أن يَزَوِّدني بنتائج الفحوصات والأشعة المصورة ، ليطلع عليها المختصون في بلادي ، حتى إذا تقررت العملية .. وفي (سويسرا) بالذات ، لم يتعذر الرجوع إليها فيما لا يزيد عن خمس ساعات بالطائرة كما لا يخفي ، فقال بعد تزويدي بما طلبت : المهم هو كسب الوقت ضد أي احتمال سيء لتطور الورم ــ إن كان خبيثاً على الأخص ــ وإجراء العملية التي يراها هو ضرورية في حدود أسبوعين على

الأكثر .. ثم طلب ــ من باب الاهتمام علمياً وودياً ــ أن يحاط عِلماً بما سيكون إن لم أَعُدْ إلى (سويسرا) .

ولم ينقص برد اليقين والطمأنينة في نفسي ، وإنما زاد بعد العودة إلى الوطن ولقاء الأهل والولد .

وذهب الابن فارس بالأوراق الطبية التي تزودت بها من (سويسرا) إلى المختصين في مستشفى الملك فهد بالمدينة حيث يعمل طبيباً جراحا ، ويتهيأ في الوقت نفسه لتحصيل (الزمالة) أعانه الله .

ثم طار إلى المختصين في (المستشفى التخصصي) بالرياض ، ولي فيه ملف بقصتي يوم جئته قبل سنتين من (سنغافورا) كما قلت في بداية الكلام ، وظهر أنه لابد من العودة إليه أخيراً بعد التداول مع أولئك وهؤلاء المختصين .

وهكذا شددت الرحال إلى الرياض بعد مُضِيِّ أسبوع على مغادرة سويسرا ، معلناً أو متظاهراً بأن الهدف هو إجراء فحوصات ــ لاأكثر ــ بحكم ذلك (الملف) ريثما تبدو الحقيقة على علاتها بعد الفحوصات ! ويظل المستشفى ــ وإن كان هو المستشفى التخصصي ــ بمعناه في النفس أيًّا كانت القمة التي يتربع عليها كأرقى المستشفيات في العالم ، بل كأرقى من معظمها بجودة التعامل على اختلاف نوعياته ومادياته ، وبمستوى الخبرة والعلاج والإمكانات ، غير أن المعنى في النفس ــ كما قلت ــ يظل هو ذلك الذي يرمز إليه ما قيل عن الصحة ، وأنها تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى !

ولقد أسعدني ــ بعد الاندماج في محتوياته اللامعة أو في الْحَيِزِّ المقرر منها ــ تَفَضُّل مديره الصديق الدكتور فهد العبد الجبار بزيارتي مُرَحِّباً بالنزيل القديم في شخصي ، وعلى وجهه ابتسامة عذبة وكلام رقيق يسمن ويغنى ويؤكد طمأنينتى إلى ما كان وسيكون .

ومع بداية الفحوصات التي يستقبلها المريض بمجرد الاستقرار في المستشفى سعدت بخطوات (سلمان بن عبد العزيز) الأمير الحبيب الذي يتدفق حيوية ونشاطاً دائماً في سبيل خدمة المصلحة العامة ومساعدة الناس ومشاركتهم جهد المستطاع بفعالية صادقة مثمرة .. ، ثم ظل يزورني ويتفقدني ما ظللت في المستشفى ومن قبل ومن بعد .. مغموراً بالامتنان لتفضله الكريم .

ثم أمضيت يومين في فحوصات متتالية كان آخرها استخلاص (عينة) من الورم المقول عنه .. ليس بواسطة (منظار) كما قيل لي من قبل ، ذلك لأنه ورم سطحي تغنى فيه (الإبرة) التي لم تكن برغم التخدير الموضعي سهلة أو غير مؤلمة !

وجاء الأطباء المختصون عصراً .. بنتيجة الفحوصات ، معلنين دهشتهم لاكتشاف (الورم) في مرحلة مبكرة لا يكتشف عادة في مثلها ، وإنما يكتشف عادة بعد الأعراض التي لم يظهر شيء منها عندي بعد ، وهي التي يكون خطره فيها أشد وأقوى .. أما الآن فان عملية استئصال الجزء الأعلى من الرئة اليسرى يضع حدّاً للخطر والمخاوف ، وَيُنْهى الإشكال .. وحمدت الله في ضميرى على لطفه الخفي باكتشاف ما كان قبل فوات الأوان .

وأحسبنى ترددت في إجراء العملية وأنا أتصور أهميتها عندما قال أحدهم : إنها عملية بسيطة ، ويجري هنا مثلها دائماً .

قلت كم تستغرق من الوقت ؟ قال مالا يزيد عن ثلاث ساعات ، وأنت حر بالطبع في إجرائها حيثما تريد ، غير أنه لا داعي لأى قلق أو انزعاج لحسابها .. قلت : إن جوابي الأخير سيكون غداً إن شاء الله .

وجاءني الطبيب الجراح ـــ وهو أمريكي لا أدري إن كان هو أصلاً أصلع ؟ أو هو من هواة حلاقة الرأس بالموس ؟! ـــ جاءنى قبل الثامنة من

صباح اليوم التالي ضمن جولته مع الآخرين ، وقال : ماذا قررت ؟ هل نجري العملية غداً الثلاثاء .. أو بعد غد الأربعاء ؟ وأسرعت فوضعت حدّاً للتردد ولأى هاجس في خواطري بقولي وأنا أفرك عيني من نومة الصباح : غداً إن شاء الله .

واضطررت لإعلان الحقيقة في مواجهة من كتمتها عنهم من قبل .. ، ثم انسجمت في مهاتفة السائلين على البعد والقرب ، وملاطفة الزائرين ، وقراءة ما تيسر من الصحف وسواها .. إلى آخر ما مضى به اليوم ، وأعقبه ليل ذكرني بليل امرىء القيس الذى هو كموج البحر .. أرخى سدوله عليه بأنواع الهموم ليبتلى .. ولم يكن ليلي كليله حقاً ، ولكنه مجرد خاطر فحسب !

وانطوى الليل على أى حال .. وذهبت بعده صباحاً قبل التاسعة ، محمولاً على السرير المعتاد في يقظة حرصت على التشبث بها ضد التخدير المبدئي .. ثم كان آخر عهدي بغرفة العمليات وبمحتوياتها من البشر والآليات كأول عهدي بها بعد نحو ثلاث ساعات وقد انتهى كل شيء ، باستثناء ما اندمج في بعض أطرافي من الأجهزة العاملة لتطبيب وتغذية هيكلي المسجى فيما يسمونه غرفة الإنعاش !

وأخذت أدير عينيَّ ببلادة فيما حوالي ، فلم أتبين شيئاً أو شخصاً معيناً .. كان الغموض يلفُّ ما حوالي أو هو يلف رأسى في مواجهة ما حواليَّ ، حتى استعدت الصحو تدريجياً ، وشعرت بما أنا فيه وبما أعانيه بين الأجهزة ، وتفقدات المختصين ، وتلطفات الزائرين .

وفي الليلة الثانية بلغ الصحو منى أشده فلم يدركنى النوم بين تحركات من كانوا ــ ولعلهم كذلك دائماً ــ يدورون في فلك غرفة الإنعاش من أهل الطب أو التمريض بما قد لا يخلو من ضجة المذاكرة أو الحوار حول مهمات العمل ــ غالباً ! ــ بعد أو حوالي منتصف الليل ،

بحكم أن الذين في الغرفة تحت الإنعاش أو قد ينسجم مزاجهم مع الضجة إذا انتعشوا .

وثقل ذلك على مزاجي .. وقد خلصتُ ـــ كما فهمت ـــ من ضرورة الإنعاش ، فالتمست العودة إلى غرفتي .. وفيها أخذت أتأقلم بين أجهزة عالقة ببعض أطرافي ، وما يلاحقني من علاج ، وتفقدات واتصالات هاتفية ، وزيارات يخالج النفس منها جميعاً أعمق الامتنان وأطيبه لوفاء أهل الوفاء ، ومروءات ذوى المروءة ، وتفضلات أولى الفضل ، أيا كانت معاناة المريض بينها ، خاصة إذا أخذ يتحدث عما جرى وحصل وفق مقتضيات الحال والمقام !.

ولا أكاد أنسى خطوات (عبد الله بن عبد العزيز) بطل الحرس الوطنى وولي عهدنا الحبيب وهو يشرفنى بزيارته ، ويغمرني بلطفه ومعشره الكريم .. ثم لا أكاد أنسى أيادى (سلطان بن عبد العزيز) بطل الدفاع عن الوطن والمقدسات والمعتقدات ، ومخاطبتي هاتفياً من حيث كان يقيم في طيبة الطيبة بمعية خادم الحرمين الشريفين الذي كان وسيظل له شيء أكبر من الطوق في العنق بما لا يَنْقِطعُ من وابل عطفه ومزاياه .

ثم لو ذهبت أتحدث عن كل من تفضل وتفقدني بالزيارة أو الاتصال الهاتفي أو بمقتطفات من الورود والأزهار والبطاقات ـــ من أمراء وزملاء واصدقاء غمروني بصنيعهم الجميل ـــ لخشيت عامل النسيان إذ سيفوتني استيعابهم جميعاً .. ثم عامل الرياء وهو الأهم حيث قد يلوح أنني أفخر بذلك أو أتيه وأنا أهون كثيراً إلا من سوء الظن بنفسي إذا حسن الظن بها ممن عداي !

ثم انتهت مهمة الأجهزة والأسلاك المصاحبة ، بعد الاستقرار في غرفتي بأربعة أيام ، وعدت طبيعياً كما كنت من قبل ، باستثناء بواقي العملية أو آثارها داخل الصدر ، بالإضافة إلى الأثر الطبيعي لتقلص الرئة بعد

الاقتطاع منها ، إلى آخر ما تزودت من أجله ببعض العلاج لدفع الألم ومؤازرة التنفُّس عند اللزوم .

وأمضيت نحو عشرة أيام في دور النقاهة بين ظروف الزيارات والاتصالات ومطالعات في الصحف والكتب .. وسواها !

وكان أحد الأطباء المختصين بأمراض العظام قد فحص ركْبَتَيَّ في هذه الأثناء ، على ضوء ما سبق من فحوصات وأشعة وتقارير ، فلم تكن العملية من رأيه لحسن الحظ ، بل هو يفضل العلاج بمسكنات أتعاطى مثلها أحياناً ، وبحركات رياضية معينة للساقين كان دمها ثقيلا ، أو على الأصح دم من كانت تترصدني لتأديتها تحت إشرافها من وقت لآخر ، فقد كانت ملامحها ثقيلة على مزاجي خاصة بعد أن سألتها عن أصلها ومعتقداتها ، واتضح أنها متعنصرة .. أو هكذا خيل إليَّ .. ومعذرة فاني أذكر مشاعري على الخطأ والصواب وعلى أى حال !

ولم تنقطع الفحوصات عنى خلال دور النقاهة .. ثم بعد أن خرجت من المستشفى وقد أمضيت فيه بضعة عشر يوماً مرت ثقيلة أو خفيفة كغيرها من أيام العمر الذي ينقص ولا يزيد كل يوم !

وأكتب هذا بعد أضعاف مدة كالتي مضت عليَّ خارج المستشفى وأنا على ارتباط به في سلسلة مواعيد لمتابعة الفحوصات باسم الحفاظ على السلامة من أية بواق لما كان في الجسم المكدود !

وأتذكر في هذه الأثناء وسأظل أتذكر إلى الأبد معنى اللطف الخفي الذى أدركني قبل فوات الأوان يوم استجبت للذهاب إلى (سويسرا) بفكرة العلاج العام ، فلم يحصل هو ، وإنما حصل اكتشاف ما كان سيظل خبيئا في الجسم لو لم أذهب إليها وواصلت مسيرتي إلى حيث يتأصل ويستفحل وتظهر أعراضه بما قد لا يجدى معه إلا انتظار إحدى الراحتين يومذاك !

إن الله قد ينساه الإنسان كثيراً أو غالباً ، ولكن لطفاً خفياً كهذا ـــ وما أكثر نظائره في حياتي كالآخرين ـــ ما أجدرني بأن لا أنساه ليظل الله في مواجهتى وفي ضميرى دائماً وإلى الابد .

محمد عمر توفيق



الفهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة لابد منها	٧
الماضي الحي	١٣
قصة الحادث	١٥
من جدة إلى بيروت	١٨
أحضان لبنان	٢١
الدنيا الجديدة	٢٣
دعاء المضطر	٢٧
اليوم الأول	٢٩
إلى الدرجة الأولى	٣٣
الأسبوع القادم	٣٧
بين الليل والنهار	٤٠
في الانتظار	٤٦
عقارب الساعة	٥٢
إذا انتصر القلق ؟	٥٦
يا .. الله	٦٠
العملية الأولى	٦٣
بعد العملية	٦٨

الموضـــوع	الصفحة

العمليـة الثـانية ٧٣

خرجت من المستشفى ٧٧

الطبيب البـارع ٨٠

في جـو النهـاية ! ٨٥

خيـال عـابر القـارات ٨٨

عـلى هامـش الجـوع (١) ٩٦

عـلى هامـش الجـوع (٢) ٩٨

للعـلاج بين القـارات (١) ١٠٠

للعـلاج بين القـارات (٢) ١٠٦

من سويسـرا إلى المستشفى التخصصي ١١٣

طبع بتصريح وزارة الاعلام
رقم ١٢٠ / م / ج
بتاريخ ١٤٠٩/١/١١ هـ

مطابع سحر
المملكة العربية السعودية - جدة - المدينة الصناعية
تليفون ٦٣٧٠٠٨١ ٦٣٧٠٠٧٣

« ليل طويل يذكرنى بليل امرئ القيس ، فأتخيله نائما على السرير يهذى بانفعالاته إذا أقبل الليل .. ويتمثله كموج البحر .. أرخى سدوله .. إلى .. إلى أن أنْسَجِم .. وأردد معه — ولو في سرى — ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى .

وحينئذ يرتفع صوت الممرضة وهى منسجمة في حديثها مع من لا أدريه على باب الغرفة .. وتقفز إلى خيال امرئ القيس صورة العذارى اللاهيات ، والناقة التى ذبحها لهن قبل أن يسبحن في الغدير .

وتجلس على الكرسى وفي يدها مغزل ورقعة تنسجها لأية ممرضة أخرى من باب المعونة أو التسلية » .

